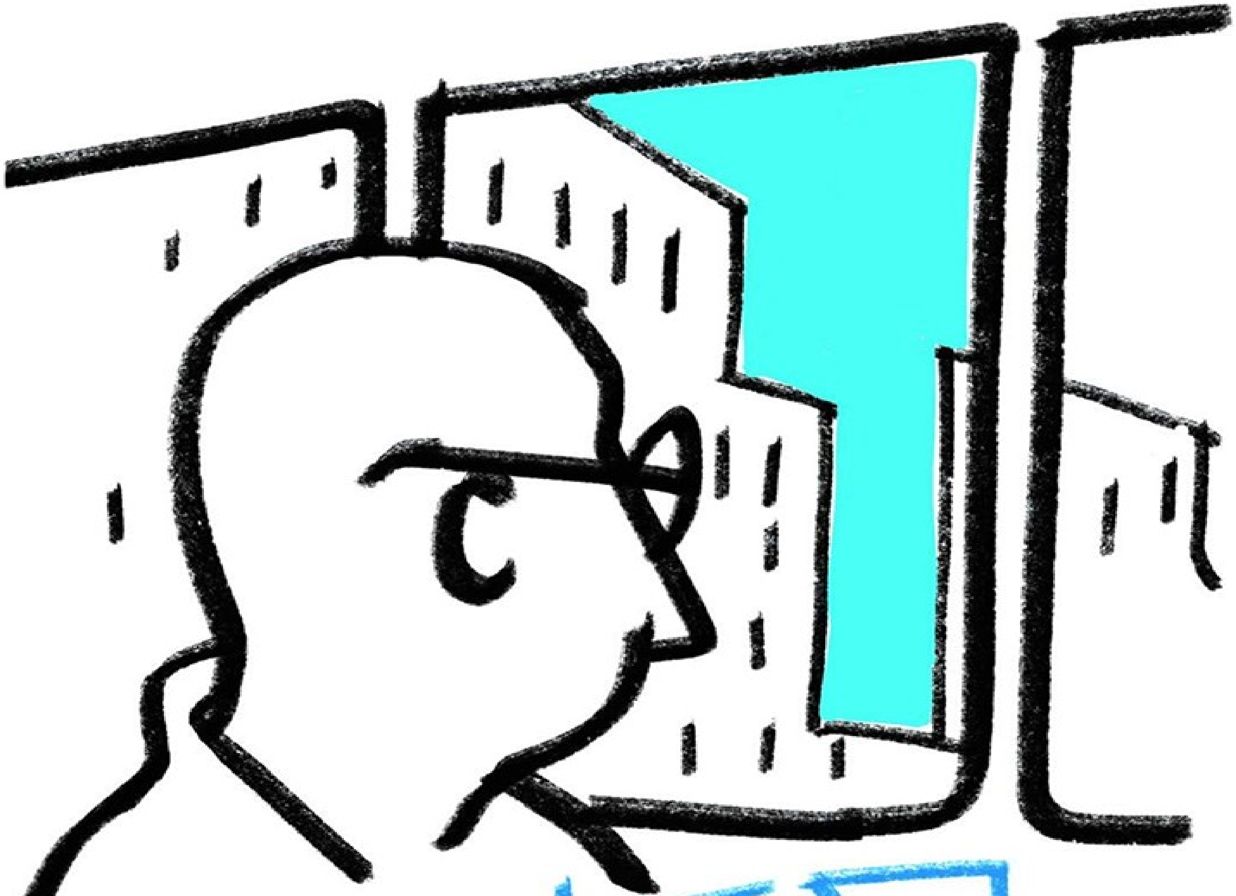

كتاب المُوَاصَلات

حكايات شخصية لقتل الوقت

عمر طاهر

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

كتاب المواصلات

عمر طاهر
كتاب المواصلات
حكايات شخصية لقتل الوقت

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر : facebook.com/alkarmabooks
حقوق النشر © عمر طاهر 2018
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر .
طاهر، عمر .
كتاب المواصلات: حكايات شخصية لقتل الوقت / عمر طاهر - القاهرة: الكرمة للنشر، 2018 .
1- القصص العربية القصيرة
أ-العنوان
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 10385 / 2018
2 4 6 8 10 9 7 5 3 1
تصميم الغلاف: وليد طاهر

إهداء

إلى كثيرين كانوا رفقتي في المواصلات، ولم أمتلك فرصة لأشكرهم، أخص بالذكر من كانوا أساسيين في تلك الرفقة: كُتب بهاء طاهر، وإبراهيم أصلان، وخيري شلبي، وصلاح عيسى، وأحمد بهاء الدين، والأعمال الكاملة لفؤاد حداد، و«أحلام فترة النقاهة» و«أصداء السيرة الذاتية» لنجيب محفوظ، وكُتب مولانا صلاح الدين التجاني، وأصوات شادية وأم كلثوم، وحفلات نجم والشيخ إمام، وبروفات شغل بليغ ووردة، وأميات نجيب سرور بصوته، ومسرحية «ميس الريم» لفيروز والرحبانية، وتسجيلات النقشبندي، ونوادر الشيخ المنشاوي، وحلقات «غواص في بحر النغم» لعمار الشريعي، وحلقات «زيارة لمكتبة فلان» لنادية صالح، ورباعيات جاهين بصوت علي الحجار .

يا غريب الدار

كانت الفترة التي تسبق نشرة التاسعة مساء على القناة الأولى فترة ـ بلغة الميديا ـ «ميتة»، كان ذلك خلال الثمانينيات، وفي انتظار برنامج «حديث الروح» كان التلفزيون يبث عادة أغنيات وطنية («حبك أصيل» لعفاف راضي، أو «يا بوي يا مصر» لمحمد الحلو)، وإذا كان مزاج المسؤول عن الخريطة رائقًا، كان يلعب أغنية عاطفية لمحرم فؤاد (تحديدًا: «لو كان الأمر أمري»). كنت كطفل متعلق بالتلفزيون أحفظ هذا البرنامج الثابت، لكنني فوجئت يومًا بتغيير ما عندما بُثت أغنية راقصة جذبت مسامعي، في خلفية مجموعة من الراقصات يرتدين أزياء تنتمي ـ في حدود معرفتي كطفل ـ للمسلسلات التاريخية، كان اسمها «يا غريب الدار»، وكان صوت المطرب حنونًا بطريقة لا يمكن إلا الوقوع في أسرها، ولسبب لا أعرفه انتهت الأغنية وقد تعلقت بها بقوة .

كنت وقتها في محل «عم فوزي» الترزي الرجالي مع أبي في انتظار أن يأخذ عم فوزي مقاسات بنطلوني الجديد، سألني الترزي بغتة إن كنت أريد البنطلون بـ«سوستة ولّا زراير»، طلب أبي «الزراير»، لم أكن مرتاحًا للفكرة، كنت في السن التي يحبس فيها الواحد البول حتى آخر لحظة ما دام منهمكًا في اللعب مع أقرانه، لم تكن «الزراير»، بما تحتاجه من وقت، مناسبة للحياة بهذا التكنيك، طلبت «السوستة»، لكن الترزي قال: «زراير علشان تبقى زي الكبار ».

يحلم الواحد في الطفولة باللحظة التي سيكبر فيها، ويحاول أن يتخيل شكله ويقع في غرامه مبكرًا، ثم يكبر الواحد ويتأمل صوره صغيرًا، يتأملها وبداخله خجل مربك وكأنه يعاتب نفسه: «لماذا كبرت؟»، وكأنه المسؤول عن جريمة أنه كبر .

مع بداية الحياة العملية لاحظت أنني أهرب من البنطلونات ذات «الزراير»، ثم خمنت أنها خوفًا من نظرية عم فوزي، يخاف الواحد أن يكبر لأسباب كثيرة، في مقدمتها شعوره أنه لم يفعل ما يريده بالضبط، ولكن تورط في أشياء كثيرة تشبهه، ينتظر اللحظة التي ستكون فيها السعادة خرافية، ويود أن تأتيه مبكرًا بحيث يكون متاحًا له أن يفرح بها بجنون يليق بسن صغيرة، ثم ضرب فؤاد عبد المجيد هذه النظرية في مقتل .

ظللت بعد زيارة عم فوزي أنتبه قبل التاسعة أمام التلفزيون، عسى أن يذيع الأغنية التي وقعت في غرامها، وكنت أصادفها كثيرًا حتى حفظت ما تيسر لي فهمه من كلماتها. ثم حدث بعد سنوات طويلة أن كنت في سيارة أحد الأصدقاء، وقال إنه سيلعب أغنية ستدهشني، وضع الشريط في الكاسيت فانطلقت هذه الأغنية، لم أصدق أنها موجودة على شريط كاسيت، كنت أعتقد أنها لم تعد موجودة إلا تحت تراب ذاكرتي. أمسكت علبة الشريط، ونظرت إلى الصورة، وكانت المرَّة الأولى التي أرى فيها المطرب، كانت صورة فؤاد عبد المجيد تشبه أي شيء إلا الصورة التي رسمتها في خيالي لمطرب الطفولة، أدهشتني لحيته والشيب الذي يغطيها، ونظرته الطيبة، وابتسامة وقور تليق برجل في الستين من عمره، ثم ترجمت فجأة كل هذه «الحِنيَّة» الناعسة في صوته التي أسرتني في الطفولة، هذا حنان «الجد» إذا غنَّى .

أفكر أن فؤاد عبد المجيد لم يعرف سوى البنطلونات ذات «الزراير»، فقد بدأ كبيرًا، مهندسًا زراعيًّا يحب فن الموشحات مع إيقاف التنفيذ، فلا أحد يتحمس لهذا النوع من الفن، إلى أن اصطحبه ابن عمه الناقد الرياضي الكبير نجيب المستكاوي إلى سهرة مع أحد الأصدقاء، وكان

حاضرًا موسيقار بقامة «عبد الحليم نويرة»، طلب أن يستمع إليه، فانبهر به، ثم بدأ المشوار الفني.
كان فؤاد عبد المجيد في منصب كبير في وزارة الزراعة عندما فُتح له الباب فقدَّم أغنيات خالدة مثل: «يا غريب الدار»، و«عجبًا لغزالٍ»، تبنى التلفزيون المصري إنتاجها ثم احتضنتها فرقة رضا، ثم غنَّى ولحَّن فؤاد عبد المجيد ما يحبه، وأعاد الحياة إلى فن الموشحات بينما هو على أعتاب أن يودع الحياة .
كنت أتأمل صورته، وأفكر في السحر الذي أمسك به هذا الرجل ثم ألقاه على قلوب الناس فسكن فيها بأريحية ناجحة من أول لحظة. على ظهر غلاف الألبوم كان مكتوبًا أن موشح «يا غريب الدار» من كلماته وألحانه، صرخت في صديقي مندهشًا: «الحقْ ده هوَّ اللي كاتب كمان»، فقال لي صديقي باستهتار: «ما كلهم على بعض 3 سطور»، أحبطتني الملاحظة لأنها صحيحة، ثم تحول الإحباط إلى مزيد من الإعجاب بهذا الرجل الذي صنع من ثلاث جمل أسطورة خالدة في الوجدان .
بدأ عبد المجيد كبيرًا، في وقت كان الواحد يتحاشى فيه أن يكبر بسرعة، أود أن أظل صغيرًا لا يدقق أحد في أخطائه، ولا يتورط في حسابات معقدة قبل كل خطوة، ولا جذور له تربطه بالأرض، وجواز سفر جريء لا يخشى قلة المال أو الالتزامات المهنية أو العائلية، وأفكار جريئة متدفقة لا تنضب، يخاف الواحد أن يكبر فتتدهور أفكاره. ثم غيَّر فؤاد عبد المجيد نظرتي للأمور، هذا رجل وقع الناس في غرامه فور أن قدَّم أفكاره وهو في الستين من عمره، حتى التسجيلات النادرة التي لم تُذع له عبارة عن موشحات يرددها في صالونه الخاص، وفي الخلفية كورال من محبيه في مقدمتهم محمد عبد الوهاب، وعمار الشريعي، وسليم سحاب، والشيخ المبتهل محمد عمران .
تظهر نظرية عم فوزي في خيالي وتختفي، وأنظر اليوم إلى دولابي، فأجد خمسة بنطلونات، أغلبها بـ«سوستة»، ولكنْ هناك واحد فقط بـ«زراير»، اكتشفت أنني أدخره للمشاوير المهمة .

ع المدينة

(1)

في الطريق إلى السويس كان صديقي الأقرب ماجد يشعر بأنه محل عناية إلهية خاصة، ففي الوقت الذي أعياه فيه الضيق، ولم يكن يتمنى سوى شرفة في مكان بعيد، تطل على مشهد غير مألوف، تلقى دعوة من يوسف زميله السويسي في الكلية لقضاء الإجازة الرسمية معه في غرفته التي ترى «القنال»، خاصة وأن الأب والأم سيغيبان عن المنزل لحضور مناسبة عائلية في إحدى مدن الصعيد .

كان ماجد يشعر بالضيق لأنه اغترب واستقر في العاصمة، بحثًا عن انطلاقة جديدة لحياته من الكلية التي لا تحمل أية ميزة سوى وجودها في العاصمة، لكنه بعد مرور أربع سنوات لم يجد مفتاح هذه الانطلاقة. كان يشعر أن الوقت يمر، وأن الشهور المتبقية على نهاية الدراسة في هذه الكلية ليست كافية للعثور على هذا المفتاح. كان يضايقه أنه سينهي دراسته قريبًا، ولن يجد حجة تقنع أهله بالاستمرار بعيدًا عن مدينته التي لا يحلم بالعودة إليها .

(2)

في صباح اليوم التالي استيقظ ورفض النزول مع يوسف لشراء الإفطار، اختار أن يبدأ يومه بسيجارة وقليل من الشاي في الشرفة التي كان يتمناها، كان يتأمل القنال وهو يبحث في فايل محمد منير عن الأغنية التي كانت على مدى السنوات الأربع الماضية تظلل خطواته، كان منير يغني: «لفوا بينا.. قالوا لينا.. قالوا بينا على المدينة.. لما جينا التقينا.. كل شيء فيها ناسينا ».

سمع ماجد صوت طرقات عصبية على الباب، فتح فوجد شخصًا قصير القامة في بداية الثلاثينيات، كانت نظرته متوترة، سأله بدون مقدمات عن يوسف، فأخبره أنه على وصول، ثم سأله عن هويته، فقال له إنه ابن صاحب البيت، ثم دفع الباب بقوة فانفتح، ودخل يلف ويدور في البيت كالمجنون. كان ماجد لا يعرف ما الذي يجب أن يفعله بالضبط، قال له ابن صاحب البيت: «فيه واحدة غريبة طلعت عندكم دلوقتِ.. هذه ليست أول مرَّة يفعلها يوسف في غياب أهله.. هيَّ فين؟»، نفى ماجد تمامًا هذا الاتهام طالبًا من الرجل أن ينتظر وصول يوسف ليفتش البيت، لكن بإذن صاحبه. أصر الرجل قائلًا: «فيه واحدة دخلت العمارة.. أنا لسه شايفها»، قال له ماجد: «ربما تكون قد صعدت إلى شقة أخرى»، قال ابن صاحب البيت : «لا يوجد غرباء في هذه العمارة سوى أهل يوسف واستراحة البنك ».

فكر ابن صاحب البيت، ثم طلب من ماجد أن يصحبه، اعترض ماجد، فقال له ابن صاحب البيت: «ما تخافش ».

في الطابق الأخير كانت هناك شقة عليها لافتة تقول إنها استراحة العاملين في أحد البنوك، طرق ابن صاحب البيت بجنون على الباب، كان واضحًا أن هناك حركة بالداخل، كان واضحًا أنها حركة مرتبكة، كان يوسف قد وصل فنادى عليه ماجد ثم انضم للمشهد .

بعد دقيقة فتح الباب شخص على وجهه علامات تقول إنه في وضع حرج، دخل ابن صاحب البيت يفتش كالمجنون في الاستراحة، ثم خرج من إحدى الغرف بسيدة متوسطة الجمال، كان واضحًا أنها كانت تحاول ارتداء ملابسها، عندما هجم ابن صاحب البيت على الغرفة التي تختبئ فيها مع

رجل ثانٍ، طلب ابن صاحب البيت من ماجد ويوسف ألَّا يسمحا لأحد بالخروج، ثم فتش غرفة أخرى فخرج برجل ثالث شبه عارٍ .
كان الذهول يغطي نظرات الجميع، اتصل ابن صاحب البيت بالشرطة، بدأت حملة من الاستعطاف والتوسل قام بها كل من في الشقة طالبين الغفران، كانوا جميعًا يحاولون أن يتحاشوا فضيحة سيكون أثرها مضاعفًا في مدينة هادئة صغيرة.. تبتلع المدن الكبرى مثل هذه الفضائح، لكن لا أمل في ذلك هنا .
كان ابن صاحب البيت يكرر جملة واحدة طول الوقت: «هذه ليست أول مرَّة»، كان يوسف يشاركه نفس الرأي ويرفض أية محاولة للاستغاثة، وحده ماجد كان يراقب الموقف في صمت، والتقت عيناه بعيني المرأة، فشعر بغصة ما جعلته يدير وجهه بعيدًا، لمح في وجه المرأة صفاقة ما، كانت هي أكثرهم هدوءًا، وكان باديًا أنها ربما تكون محترفة .
وصلت الشرطة، وقال ماجد كل ما حدث نصًّا، وعرف أثناء وجوده في القسم أن العامل المسؤول عن الاستراحة يؤجرها لراغبي المتعة، ويُقدِّم لهم هذه المرأة مستغلًّا أنه لا أحد بحاجة إلى الاستراحة معظم الوقت .
قضى ماجد فترة طويلة في قسم الشرطة، لاحظ خلالها عودة ابن صاحب البيت إلى طبيعته مع شعوره بتحقيق انتصار ما. سأله لماذا لم يفكر أن يستر على من ضبطهم، قال له إنه فكر في ذلك لكن شيئًا ما لا يعرفه قد منعه .
طلب ضابط الشرطة من ماجد أن يكون حاضرًا تحقيق النيابة في الصباح الباكر .
(3)
في صباح اليوم التالي كان ماجد يقف أمام المبنى في انتظار موعد النيابة، وصلت السيارة التي تقل المتهمين، نزلت منها المرأة ومشت خطوات قليلة، وقبل أن تصل إلى الباب ظهرت امرأة أخرى أربعينية نظرت إلى المتهمة وأخذت تصرخ: «بنتي فين؟ بنتي فين؟»، وأمسكت برقبتها بعنف ثم فقدت وعيها وسقطت في مكانها .
(4)
بعد ظهور نتيجة نهاية العام، فكر ماجد في الدراسات العليا كحُجة للبقاء في العاصمة، كانت حُجة مقنعة بالنسبة لأهله، وكان يؤمن بصدفة ستقوده إلى المفتاح الضائع، مثل الصدفة التي قادت السيدة التي أغشي عليها أمام مبنى النيابة للإمساك بجارتها القديمة التي اختطفت طفلتها قبل ست سنوات وباعتها لأسرة في الشرقية .
لم تكن تلك الطفلة لتعود إلى أمها لولا فضيحة أصر عليها ابن صاحب البيت، وكانت درجات السلم التي صعدها معه ماجد إلى الدور العلوي درسًا في عدم فقدان الأمل .

شعر أبيض

سألت صديقي الذي يكبرني قليلًا إن كان قد صبغ شعر رأسه «ولَّا بيتهيألي». أعرف أنه سؤال محرج، ولم يحدث أن وجهته لأحد، ولكن ما بيننا كان يسمح لي بقليل من الوقاحة. قال صديقي إنه يحاول أن يضع كل شيء في مكانه بالضبط، فالشعر الأبيض الذي فرض كلمته لا يشبه ما يشعر به تجاه حقيقة سنوات عمره، وأنه يشعر بأزمة يومية أمام المرآة، فهناك شخص آخر لا يشبهه يطل منها، ثم أنهى كلامه قائلًا: «مش عارف على إيه الشعر الأبيض ده كله، أنا لسه ما عملتش حاجة ».

صديقي ليس من النوع «العايق»، ولم يفعل ذلك كذئب بشري محتمل، وهو ليس نجمًا يخاف على جماهيريته، لذلك صدقته، قلت له: «كل سن وله حلاوته»، لم يعترض ولكنه قال: «أنا بس ما كنتش عامل حسابي... اتاخدت غدر ».

أخمِّن أن صديقي الذي عبر منتصف الأربعينيات قد تعرض لأكثر من «خضة» أربكت حساباته، من نوعية أن يسمع من مراهق شحط في الشارع: «يا عمو»، أو صديق «يمنشنه» في صورة مشتركة على فيس بوك وقد كتب عليها: «العجمي من 25 سنة ».

كان صلاح جاهين يحكي أنه منذ طفولته، كان كلما انتقل إلى بيت جديد يفتش عن «بنت الجيران» التي ستصبح ملهمته، وستجعله يعيش حالة «ابن الجيران»، إلى أن استقر في بيته الأحدث، ويحكي أنه في أول يوم وعند خروجه التقى بـ«بنت الجيران» أمام باب الأسانسير، فابتهج وقرر أن يفتح معها كلامًا، فألقى تحية الصباح، فردت: «صباح الخير يا أونكل»، يقول جاهين: «ساعتها أدركت أنني لم أعد «ابن الجيران»، بل أصبحت «الجيران نفسهم »».

وهناك حكاية عن خليفة دخل عليه صديق غزا الشيب شعره، فأشار الخليفة إلى رأس الصديق وقال مقتبسًا: «وجاءكم النذير»، وهنا يكمن الارتباك، خضة جملة مراقب اللجنة «نص ساعة وألم الورق»، يؤمن الواحد أنه لم يقدم إجابة نموذجية حتى هذه اللحظة، وأنه لديه الكثير ليكتبه في ورقة الإجابة، وأنه يريد بعض الوقت ليصحح ما اكتشف خطأه بالوقت، ويا ريت لو ورقة إجابة جديدة يبدأ فيها «على نظافة»، ارتباك سببه يقين الواحد أنه يمتلك أفضل مما قدمه كثيرًا، هذا الارتباك ربما لم يكن ليحدث لولا جملة المراقب، التي تبدو وكأنها الشيب وقد كسا رأس لجنة الامتحانات .

حاولت أن أشرح لصديقي أن الشعر الأبيض لم يمر عبر بوابة الزمن والعمر، ولكن عبر التجربة، شعرة بيضاء لفراق الحبايب الغاليين، وأخرى لـ«نصرة قوية» بعد انكسار، واحدة لأيام «قلة الحيلة»، وأخرى للخجل أمام «الفتح»، ما بين الصدمات والاكتشافات، الصبر وجبر الخواطر، الندم والستر، رقدة المرض والرقدة مسترخيًا على رمل البحر، يقول الشَّعر الأبيض إنك قد مررت من هنا، والأهم أنك كنت جادًّا في مرورك .

يخاف صديقي مثلنا على الطفل الذي كانه، ولا يريد أن يفلته، قلت له: «على وضعك». أؤمن تمامًا أننا ما زلنا جميعًا «عيال»، لم يتغير الطعام الذي نحبه، ونوع الأشخاص الذين نفضل رفقتهم، والطريقة التي ننام ونشرب ونجري ونتحمق ونضحك بها، حتى الأخطاء ما زلنا نقع فيها نفسها، لكننا صرنا نقع فيها الآن بخبرة .

قلت لصديقي: «أنا لو مكانك سأفرح بالشَّعر الأبيض ولن أصبغه، ربما أضيف له «خطين حُمر»».

بين قوسين

(1)

أجلس وحيدًا في مكتب صديقي الذي استدعاه أحدهم فجأة. على شاشة محطة «ماسبيرو زمان» تسجيل لمباراة قديمة بين الأهلي والزمالك، يعلق عليها كابتن محمد لطيف الذي يعرف الجميع أنه زملكاوي، لكن فرحته بهدف ملعوب أحرزه الأهلي، جعلتني أندهش من قدرته على أن يتجاوز بمهنية شديدة انتماءه الأصلي. في اللحظة نفسها رن هاتف صديقي الذي تركه على المكتب، وكانت الرنة المقدمة الموسيقية لأغنية محمد فوزي «طير بينا يا قلبي » ، وهو اللحن الذي ما إن يطل في أي لحظة حتى يفرض عليك ابتسامة لا تعرف سرها .

عن يميني كابتن لطيف، وعن يساري فوزي، شعرت كأنني أجلس بين قوسين، محبوس في سجن قيّم دافئ، لا يشعر الواحد تجاهه إلا بمودة وامتنان كبيرين .

(2)

دخل كابتن لطيف الميدان لاعب كرة، وخرج منه مُعلِّقًا كبيرًا، كذلك فوزي الذي دخل الميدان لاعب كرة قدم وكابتن فريق مدرسة طنطا، وخرج منه فنانًا عظيمًا. كانت الناس تسأل كابتن لطيف لماذا تبالغ ـ على هامش المباريات ـ في تحية الدولة ممثلةً في الأمن، وكانت الناس تسأل فوزي لماذا تتجاهل ـ على هامش الغناء ـ تحية الدولة ممثلةً في الغناء لعبد الناصر. كانت الناس تسأل كابتن لطيف عند بداية بث المباريات تلفزيونيًّا؛ ما الذي يمكن أن يضيفه معلق لأحداث مباراة نرى كل ما فيها بأعيننا، لقد كان الأمر مقبولًا في الراديو مثلًا، وكانت الناس تسأل فوزي ما لك، وأنت النجم المحبوب الأغلى سعرًا، بِهَمّ الصناعة والإنتاج؟ وما الذي يمكنك أن تقدمه في هذا الملعب؟

كانت إجابة كلٍّ منهما عن هذه الأسئلة تاريخًا يُكتب في اللحظة نفسها .

(3)

في ذكرى فوزي يردد الجميع جملًا ثابتة أصبحت «لبانة» ضاع سكرها مع الوقت، يقولون: «العبقري، سابق عصره، أول من غنى للأطفال، لم يأخذ حقه»، ثم يموت الكلام. كنت أتشوق دائمًا لأن أسمع كلامًا جديدًا عنه، حتى عثرت على تسجيل نادر لبليغ حمدي، أحد أهم اكتشافات فوزي، كان يقول فيه إن أهم ما يميز فوزي «الإنسانية»، حكى أن فوزي فتح له باب الاستوديو طالبًا منه أن يلحن ويسجل دون الرجوع إليه، ثم يقوم فوزي بتسويق هذه الألحان بنفسه عند كبار المطربين. كان فوزي صاحب شركة الأسطوانات التي تغني لحسابها أم كلثوم، وكان بليغ قد نجح بدعم فوزي في تقديم «حب إيه» مع الست، وحقق بها نجاحًا ضخمًا كان الأول في حياة بليغ.

يحكي بليغ أن فوزي استدعاه يومًا في حضور الشاعر مأمون الشناوي، وطلب من الشناوي أن يُسمع بليغ الكلمات إياها، ثم طلب من بليغ أن يلحنها، انتحى بليغ جانبًا يلحن، لم يكن فوزي قد سبق له العمل مع أم كلثوم، عاد بليغ إلى الجلسة ليسمعهم تلحين دخول كلمات الشناوي «أنساك يا سلام.. أنساك ده كلام»، نظر فوزي إلى الشناوي قائلًا: «مش قلت لك هيعملها أحسن مني ألف مرَّة؟»، اندهش بليغ وقال له: «لما إنت شغال عليها لأم كلثوم طلبت مني ألحنها ليه؟»، ضحك فوزي قائلًا: «لازم تكمِّل نجاحك يا بليغ.. كمِّل نجاحك ».

(4)

كان كابتن لطيف يلعب محترفًا في أحد نوادي اسكتلندا، تعرض للإصابة فخرج ليجلس في المدرجات، تصادف أنه جلس إلى جوار ناقد شهير يُعلِّق على المباراة لمجموعة من المكفوفين، يحكي لطيف أنه بكى عندما لمح حماس وتأثر المكفوفين وهم يهتفون: «ارفع.. شوط .. خد بالك»، بعدها بسنوات طويلة قال في حوار صحفي، وهو المُعلِّق الكروي الأهم: «المشجع أعمى ولو كان بصيرًا». هذا سر النجاح، عندما عاد لطيف من لندن أسندوا إليه في الإذاعة مهمة تقديم تمارين الصباح، كان يتوجه إلى الراديو في السادسة صباح كل يوم ليقول للناس: «هوب.. هوب .. شمال.. يمين». غاب المُعلِّق الأشهر وقتها محمد بدر الدين فحل لطيف مكانه، نجح فأسندوا إليه مهمة التعليق على مباريات اللعبة الأكثر شعبية في مصر وقتها «كرة السلة»، وعلَّق منفردًا على بطولة أوروبا التي أقيمت في هليوبوليس وقتها، وعندما بدأ البث التلفزيوني كان البعض يرى أنه لا أهمية للمُعلِّق، لكن لطيف قدَّم ما جعل التعليق مهنة لا غنى عنها. يمكن تلخيص ما قدَّمه لطيف في مقولة الكاتب الكبير خيري شلبي: «الرؤية الفنية، استنفار المشاعر، تحويل المشاهدة لمهرجان ومناسبة للاحتفال والفرح». ابتكر لطيف مهارة استطعام اللعبة الحلوة، وعلَّم المشجع كيف يتأمل جماليات اللعب، مثلما كان يفعل عمار الشريعي في «غواص في بحر النغم » ، فكان يجعلك تستمع إلى الأغنية التي تحفظها جيدًا وكأنك تستمع إليها للمرَّة الأولى .

(5)

كان فوزي يجلس متربعًا على قمة المنطقة الدافئة، أفلامه تحقق أعلى إيرادات، مطرب وملحن ذو جماهيرية عارمة، لكنه هجر المنطقة الدافئة بإرادته طامحًا، كفنان كبير، لأن يقدم للشغلانة ما هو أوسع من نجاحات شخصية مستقرة، فقرر أن يقيم مصنعًا للأسطوانات في مصر، كان العرف وقتها هو تسجيل الأغاني في مصر وطبعها على أسطوانات في أوروبا. استدان، وحصل على قروض، وباع ما يملك، من أجل هذا المشروع دون أية مساعدة حكومية أو شخصية، وفَّر عملة صعبة، وقدَّم أسطوانة بثلث سعر الأسطوانة المستوردة، وصنع نوعًا غير قابل للكسر على عكس الشائع وقتها، وكان الجديد أنها أسطوانة ذات وجهين تحمل أغنيتين بدلًا من أغنية واحدة، كان إنجازًا عظيمًا خدم به الدولة والمستمع وصنعة الغناء كلها، ثم أضاف إلى شركته العمل بطريقة أن يحصل المطرب على حق الأداء العلني، وهو ما لم تكن تقدمه أية شركة أخرى، فغير بالمرَّة نظام العمل والتعاقدات في مصر .

كانوا يسألونه لماذا لا تغني لعبد الناصر مثل بقية الكبار، فكان يقول: «قدَّمت للثورة وأفكارها كل ما في وسعي، عملة صعبة، وصناعة وطنية، ودعمًا لأفكار الخير مثل قطار الرحمة، ولحَّنت النشيد الوطني لدولة عربية (الجزائر) هدية». وكان يؤمن أن الغناء للأشخاص ليس مفيدًا، وكان محقًّا، فهو ليس مفيدًا فحسب، بل كان ضارًّا أيضًا، إذ دخل فوزي مقر شركته ذات صباح، فوجد ضابط جيش يجلس في مكتبه ويخبره بقرار التأميم، وبتخصيص مكتب لفوزي بجوار البوفيه للعمل كمستشار للشركة بمائة جنيه شهريًّا، ساعتها لم تكن خطوات فوزي باتجاه مكتبه الجديد، ولكن باتجاه دائرة المرض الذي انتهى برحيله .

(6)

«لماذا تبالغ يا كابتن لطيف في مجاملة الأمن؟ » ، سأله الصحفي، طلب كابتن لطيف ساعة «ستوب ووتش»، وقال له : «احسب»، ثم بدأ كابتن لطيف يُعلِّق موجهًا التحية للأمن على طريقته كما يفعل في المباريات بالضبط، ثم أنهى كلامه وسأل الصحفي عن الوقت الذي استغرقه،

فقال الصحفي : «15 ثانية»، قال لطيف: «مستكتر 15 ثانية تحية على ناس موجودة قبل الماتش بـ4 ساعات، وبعده بـ4 كمان؟ ».

(7)

كان فوزي كابتن فريق مدرسة طنطا لكرة القدم، وفي رحلة بالقطار للفريق باتجاه مباراة خارج طنطا، غنى فوزي لزملائه والأساتذة، انتبه الأساتذة لموهبته، وأحاطوا به طول الرحلة يتحدثون إليه، حتى نزل من القطار وهو مؤمن تمامًا أن مستقبله في الغناء، فبدأ المشوار .

قبل نهاية المشوار بشهور قضى الناس يومًا حزينًا وهم يقرأون في الأهرام مانشيت يقول: «نشر عظمتي حوض محمد فوزي»، وكان هذا في مستشفى «سانت ماري» في لندن، قال الأطباء إنه الحل الأخير، وإنهم يجرون الآن تحاليل على هذه العظام لمعرفة سر المرض الغامض الذي يعانيه فوزي، وفي الأخبار مانشيت آخر يقول: «محمد فوزي «85 كيلو».. أصبح وزنه «37 كيلو »».

بعدها بفترة نشرت الصحف رسالة من فوزي تقول :

«إن الموت علينا حق.. إذا لم نمت اليوم فسنموت غدًا، وأحمد الله أنني مؤمن بربي فلا أخاف الموت الذي قد يريحني من هذه الآلام التي أعانيها، فقد أديت واجبي نحو بلدي، وكنت أتمنى أن أؤدي الكثير، ولكن إرادة الله فوق كل إرادة، والأعمار بيد الله لن يطيلها الطب، ولكني لجأت إلى العلاج حتى لا أكون مقصرًا في حق نفسي وفي حق مستقبل أولادي الذين لا يزالون يطلبون العلم في القاهرة. تحياتي إلى كل إنسان أحبني ورفع يده إلى السماء من أجلي.. تحياتي لكل طفل أسعدته ألحاني.. تحياتي لبلدي.. أخيرًا تحياتي لأولادي وأسرتي ».

واختتم الرسالة :

«لا أريد أن أُدفن اليوم، أريد أن تكون جنازتي غدًا الساعة 11 صباحًا من ميدان التحرير، فأنا أريد أن أُدفن يوم الجمعة ».

كان فوزي يرى بشفافية بالغة الموت، فرحل حسبما قال .

(8)

كان فوزي يقول محاربًا الفرقعة الفارغة: «الفنان لازم يبتدي صغير علشان يحس حلاوة النجاح ويخاف عليه»، ويقول لطيف محاربًا اليأس: «الجون بييجي في ثانية». كان فوزي يرى أن الملحن يجب أن يتخيل ما يُقدِّمه ـ قبل أن يُقدِّمه ـ وهو على لسان الناس، وهل سيستطيعون غناءه، وكان لطيف يقول إن المُعلِّق الناجح لا بد أن يكون نسخة من الماتش، فلا يبالغ في ماتش ميت إكلينيكيًّا، ولا يكون باردًا في ماتش مولَّع .

رجع صديقي، وجلس على مكتبه، ثم نظر إلى هاتفه مندهشًا قائلًا: «إنت كلمتني إمتى 12 مرَّة؟»، قلت له: «أسرتني «الرنة» وكنت أطاردها ».

خليكوا شاهدين

نقف أنا وصديقي ليلًا في طابور الركاب بانتظار دورنا للصعود إلى أحد الميكروباصات المتراصة المتجهة من التحرير إلى فيصل، وقت أن كان موقفها أمام مجمع التحرير منتصف التسعينيات .

من أحد الميكروباصات التي لم يحن دورها بعد، كان صوت الموسيقى عاليًا، لزمة موسيقية ساحرة لأغنية قديمة اختلطت بالصقيع وعبأت المكان كله بمودة صافية، حاولنا أنا وصديقي أن نخمِّن الأغنية أو المطرب لكننا فشلنا، جاء في بالي أن فكرة «الأغاني كلها شبه بعض» ليست حكرًا على جيلنا، ولكنها تخص الموسيقى في كل زمان، هناك شكل موسيقي يخص كل جيل، ومعظم الموسيقيين وقتها يعملون داخله، وأقصى ما يمكن تقديمه هو التطوير، ولكن داخل مقاسات تم الاتفاق عليها ضمنيًّا بعد أن ارتاح لها الجمهور .

لم نستطع سوى تمييز صوت قيثارة عمر خورشيد، وعزفه على أوتار أسطورته التي اكتملت. تكتمل الأسطورة في حالتين: أن يرحل صاحبها عن الحياة مبكرًا، أو أن يقع في خطأ تاريخي يزيده جاذبية، مثلما خلدت ذراعا «فينوس» المبتورتان أسطورتها .

كنا أنا وصديقي نتلكأ، ونتنازل عن دورنا في الطابور، لأن الفضول كان يقتلنا ببطء، نود أن نعرف الأغنية لكن لا شيء يحدث سوى الجملة الموسيقية، التي بدا واضحًا أن الجمهور وقع في غرامها، فظلت الفرقة تعيد عزفها أكثر من مرَّة .

ثم أطلت فايزة أحمد بدون مقدمات تشكو بصدق خفيف الدم قائلة: «في هواهم ياما اتحيَّرنا.. في هواهم ياما اتحيَّرنا»، كانت تغني من مقام «الحيرة» التي كانت أهم ملمح في حياة فايزة، وهي حيرة الشخص الباحث عن الكمال، وهي مأساته أيضًا كما يقول الشاعر الفرنسي «بودلير ».

كانت فايزة أحمد تقاتل شعورًا ما بالاضطهاد يسيطر عليها، في أحد اللقاءات التلفزيونية قالتها بصراحة: «حاسة إن فيه تكتل علشان يبطلوا صوتي»، شكت أن الجواسيس أفسدوا علاقتها بعبد الوهاب، فصار يلحن لها أغنية كل أربع سنوات، وبليغ حمدي لا يلتزم بمواعيده وكثير الهروب منها، ومحمد الموجي يتحجج دومًا بأنه مشغول، كان زوجها محمد سلطان يجلس إلى جوارها في هذا الحوار، أشارت ناحيته قائلة: «لجأت لمحمد سلطان، بعد ما لقيت كل الملحنين مش عايزين يلحنوا لي». كانت الجملة صادمة بالنسبة لي، فما بالك بوقعها على فنان ثم زوج، دققت النظر إلى وجه سلطان بعد هذه الجملة فوجدت ملامحه ثابتة، واثقة لم تهتز، بعدها بسنوات كان سلطان بمفرده في أحد البرامج، وقال إن فايزة ترفض تغيير جملة الموسيقى إذا أعجبتها، وتتمسك بها بضراوة، والمفاجأة أنها كانت ناجحة. صمت سلطان لثوانٍ ثم قال: «فايزة كانت أصدق مني ».

أمعنَّا أنا وصديقي في التلكؤ حتى تكون رحلتنا إلى فيصل في الميكروباص الذي يلعب أغنية فايزة عندما يحين دوره في التحميل، وكان صوت فايزة هو أفضل طبطبة يمكن أن تقدمها العاصمة القاسية لشابين مغتربين في هذا الوقت المتأخر .

تتعبد فايزة بالغناء، قالت إن تمارين الصوت التي تجريها في منزلها عبارة عن كلمة واحدة: «الله». وعندما رفضت الإذاعة المصرية طلبها لتسجيل القرآن الكريم بصوتها، كان باديًا على وجهها وهي تحكي أنها تعتبره اضطهادًا جديدًا. بالمناسبة، لم يمنعها شعور الاضطهاد عن العمل يومًا ما. في إحدى الحفلات الكبيرة المصورة، وقفت لتغني، ثم ألقت نظرة على الجزء الخلفي من

المسرح وقالت: «فين الكورال؟ برضه فايزة أحمد هتغني من غير كورال؟»، ثم سرعان ما استعادت ابتسامتها ونظرت إلى الجمهور قائلة: «عمومًا إنتو حافظين الأغاني، وإنتو اللي هتقولوا معايا ».

«إذا ما غنيتش باموت»، قالتها فايزة، وكانت تلخص بها حياتها. في برنامج إذاعي كان السؤال عن رحلة خيالية إلى القمر، قالت: «سأسافر بمفردي ولن أصطحب معي شيئًا سوى الميكروفون لأغني ويصل صوتي إلى الأرض». كانت مكتفية بدعم أم كلثوم لها، قالت الست لأنيس منصور إن أكثر صوت يمتعها هو صوت فايزة، كانت أم كلثوم تتصل بها عقب كل حفلة تشجعها، وفرحت كثيرًا عندما أُطلق عليها لقب «كروان الشرق»، كمرتبة تالية لـ«كوكب الشرق ».

كانت تلك المرأة النحيلة تفني نفسها في الغناء، ولا تطلب غيره. في مرضها الأخير اتصل بها أحد الملحنين، بالرغم من أنهم حذروه ألَّا يفعل لأنها في حالة متردية، لكنه فعل، وقال لها إنه أعد لحن أغنية وطنية، ويسأل إن كان بإمكانها أن تغنيه، طلبت منه الحضور وكان الوقت متأخرًا، أجلسته إلى جوارها على فراش المرض، وطلبت أن يُسمعها الأغنية، أعجبتها وقالت له إنها ستغنيها بشرط أن يحدث هذا صباح اليوم التالي، لأنها في مساء اليوم ستأخذ حقنة العلاج التي من آثارها الجانبية النوم لثلاثة أيام، في صباح اليوم التالي كانت تلك المرأة النحيلة التي تستشرف الموت تقف أمام الميكروفون لتغني: «الله الله ع المستقبل ».

عندما تظهر سيرة فايزة يقول البعض إنها لم تأخذ حقها، وهذا كلام غير دقيق، ربما لم يحصل الشخص على التكريم الذي يستحقه، لكن ميراث الغناء الذي تركته احتل مكانة في الوجدان تليق بتفاني صاحبته، وهذا ما حلمت به فايزة؛ أن يصبح ما تقوله خالدًا، أما هي فقد كانت تؤمن تمامًا، وتخبر كل من حولها أنها سترحل مبكرًا .

في يوم ثلاثاء، وفي الرابعة والنصف عصرًا، استدعت زوجها، كانت في الفراش تئن، وقالت له إن الوجع لا يُطاق، كان المرض قد أحكم سيطرته كحيوان أسطوري يقبض على طائر شارد، قالت لزوجها: «أنا تعبانة»، ثم طلبت منه أن «هات إيدك»، ثم بدأت تقاوم الألم بالغناء، أخذت تغني له: «أيوه تعبني هواك.. أيوه.. تعبت.. تعبت»، يحكي محمد سلطان أنها ظلت تغني له حتى لحظتها الأخيرة .

كان عمرها اثنين وخمسين عامًا .

ما إن استقرت جلستنا أنا وصديقي في المقعد الخلفي للميكروباص حتى اندمجنا معها في الغناء، وعندما تحرك الميكروباص قطع السائق بهجتنا بأن أخرج شريط فايزة ووضع مكانه شريطًا به مادة كانت رائجة وقتها، عبارة عن صوت خليجي يمتلئ نحيبًا كاذبًا، يدعو ويتوقف في وسط الدعاء وقفات تمتلئ بالنهنهة والبكاء، كان الافتعال مضجرًا، طلب صديقي من السائق أن يقلل الصوت لأننا كنا نجلس إلى جوار السماعات، لم يسمعنا السائق، لكن راكبًا خمسينيًّا كان يجلس إلى جوارنا أبدى اندهاشه مختلطًا بمصمصة الشفاه، لأن الصوت لم يكن عاليًا عندما كانت «الأغنية شغالة». فكرت أن أخبر الرجل بالحقيقة، وبأن صوت فايزة بكل ما فيه من صدق إنساني وعذوبة جعلني أقول «الله»، أكثر من المشهد التمثيلي الصارخ الذي يدور الآن، استجمعت شجاعتي لأخبره بما أعرف أنه سيجلب لي الكلام لكنه الحقيقة، وعندما هممت بإخباره كان الخمسيني قد اشتبك مع السائق في خلاف شديد حول قيمة الأجرة، طالبه الخمسيني خلاله نصًّا بأن «وطي البتاع ده خليني أسمع إنت بتقول إيه ».

انتظار

محبوسًا داخل الأسانسير في انتظار أن ترجع الكهرباء التي انقطعت فجأة .

أحاول أن أحسب الوقت الذي يجري في انتظار هذا الفرج .

بحسبة بسيطة اكتشفت أن ثلث عمر الواحد مر في انتظار أشياء كثيرة :

في انتظار فوران كنكة القهوة فوق النار، في انتظار أن يمتلئ السخان الكهربائي بقدرٍ ما من الماء الدافئ يكفي للاستحمام، في انتظار أن ينتهي العامل من ملء «تانك» البنزين، في انتظار الميكروباص «يحمِّل»، في انتظار الإشارة «تِفتح»، في انتظار دورك في طابور تحصيل النقود أو دفعها، دورك في الشهر العقاري، أو في شركة المحمول، دورك أمام باب الحمَّام في محطة بنزين على طريق السفر، أو دورك كـ«نيكست» في ملعب الخماسي .

في انتظار أن ينضج الطعام، أن تبرد «الشوربة»، أن ينتهي تحميل الفيلم، أن يتحرك «المحور»، أن يأتي موعد الامتحان، أو النتيجة، أي نتيجة: التحاليل، ومقابلة العمل، والعرض الذي قدمته، أو «الفويس نوت» على «واتس آب»، أن ينتهي فيلم رديء تشاهده في السينما مع شلة، أن يقوم الموبايل من غفلته بعد أن أغلقته لسبب ما، أن يحضر طبق «الشطة والكمون» الذي طلبته من الكبابجي لتبدأ في التهام الأكل «اللي نزل قدامك فعلًا»، أن يأتي الجرسون بـ«المنيو» أو «الشيك» أو «الباقي»، أن ينتهي شخص ما تحبه من سرد حكاية سمعتها قبل ذلك مائة مرَّة، أن تجف قطعة ملابس مغسولة تحتاج إليها هي بالذات في هذه اللحظة، أن ينتهي المؤلف من الإسهاب في الوصف حتى تصل في الحكاية إلى الحدث، أن تنتهي الإعلانات التجارية التي تقطع المسلسل، أن تخرج العروس من عند «الكوافير ».

في انتظار أن ينتهي المقرئ في الجنازة من قراءة «رُبع اتدبِّست فيه» لأنك تلكعت في مصافحة شخص ما قابلته في العزاء صدفة، أن يؤذن المغرب عليك كصائم يحتضر يراقب الساعة وهي تقطع المسافة بين الثانية والرابعة في ست ساعات، أن تخلو إحدى غرف قياس الملابس في محلٍّ ما في موسم التخفيضات، بينما تقف تحمل بنطلونًا أعجبك، سعره «لُقطة»، أن يصل الأسانسير بك أو إليك، أن تجد موضعًا أسفل دش الشاطئ عقب الخروج من البحر، أن تصعد أنغام إلى خشبة المسرح، أن يخرج «العيش» من الفرن، أن تخرج «الطعمية» من الطاسة، أن يخرج السمك من البحر، أن يمر نصف الوقت في امتحان لم تكتب فيه حرفًا حتى تغادر اللجنة، أن ينتهي الإمام من قراءة التشهد في نهاية الصلاة بعد أن قرأته بينك وبين نفسك مرتين، أن تنتهي المقدمة الموسيقية حتى تعرف مَن المطرب وما هي الأغنية، أن يصل عامل «الدليفري»، أن يصل الأتوبيس الذي سينقل ابنك إلى المدرسة، أن يسقط طفلك في النوم حتى تتفرغ لأمر ما .

في انتظار أن يضع الصنايعي لمساته الأخيرة حتى تستلم ما يخصك، من الترزي إلى الميكانيكي.

في انتظار البحث عن «فكة»، أن يهبط عليك رزق الأفكار الصالحة للكتابة، أن يخرج كتابك من المطبعة. في انتظار أن يأتي النوم حتى تنجو من الأفكار التعيسة التي تحاصرك مهما خبأت رأسك بين وسادتين. في انتظار الساعات التي حددها لك طبيب الأسنان حتى يمكنك أن تعود بعدها إلى الأكل والشرب. في انتظار أن يغلي الماء بينما تقف أمام «الكاتل» تتأمل حبيبات الشاي الخرز المتراصة في الكوب الفارغ، أن تذهب رائحة «البيروسول» حتى تدخل إلى غرفتك لتنام. في انتظار فتاة الأحلام. في انتظار أن تحل فتاة الأحلام عن «سَمَاك». في انتظار انتهاء «الهري»

في الاستوديو التحليلي حتى تنتقل الكاميرا إلى ملعب المباراة المهمَّة التي تنتظرها، أن تنتهي فقرة السيوف المشتعلة في الفرح، أن تنصرف الناس التي أوصلتك حتى منزلك ليلة فرحك أنت والعروس، أن يمر سريعًا الوقت الذي تقضيه أمام باب الشقة، بعد أن نسيت مفتاحك، في انتظار شريكك الذي يحمل مفتاحًا. في انتظار أن يُفتح باب الطائرة عقب الوصول. في انتظار أن تنزل الحقائب على «السير». في انتظار أن يجف «المانيكير»، ويذوب قرص الفوار. في انتظار «الفرخة تفك»، والبطيخة «تسقع ».
يقضي الواحد هذه اللحظات ما بين ملل ووسواس قهري وأحلام يقظة، قد تتحول الوقفة في إشارة مرور إلى وقفة مع النَّفس، وقد تفور كراهية ما بداخلك قبل أن تفور كنكة القهوة، قد تتعسك مراقبة عقارب الساعة وهي تبهت في عينيك، وربما تقودك قلة الصبر إلى كل ما هو حماقة .
رجعت الكهرباء وتحرك الأسانسير .
نظرت إلى ساعتي، فوجدت أن ما ضاع لم يتجاوز عشر دقائق .
كنت أتأمل هذه الدقائق فرحًا بالفكرة التي سمحت لي بالتقاطها .
الانتظار قد يُهلك الواحد إذا تجول فيه بـ«الضجر»، وقد يكون هدهدة رائقة، وشرطها الوحيد أمل ما فيما ننتظر .

عزف شتوي

(1)

يقول الأديب الألماني «هاينريش بول» الحاصل على نوبل في الآداب عام 1972: «لقد علمني الطريق المؤدي إلى المدرسة، أكثر مما علمتني المدرسة ».

(2)

وقف مدرس الفصل طالبًا مننا أن نفتح الكتاب، ثم قال الجملة الساحرة التي أسكرتني كما لم يسكرني حب أي فتاة في حياتي، قال: «اشطبوا معايا على اللي هييجي في الامتحان». شخص ما يحررك من بعض المسؤولية بلا مقابل، ويمنحك مقابل كل مللي يمحوه من المسؤولية الملقاة فوق كتفك مللي سعادة. ظلت الجملة مفتاح تعاملاتي مع الكوكب طول الوقت، بالذات في علاقاتي الشخصية، لا أتعامل مع البني آدم بالجملة، أتعامل فقط مع «اللي هييجي في الامتحان»، فأتحرر من ثقل بعض عيوبه لأنني حذفتها، تعلَّمت أن أضع بنفسي امتحانات العلاقة حتى أسيطر على «اللي هييجي فيها»، أتحاشى الجزء المؤذي في المنهج وأشطب على كل الطرق المؤدية إليه، كانت جملة أستاذ «ميخائيل» تافهة شكلًا وأعمق ما يكون مضمونًا .

(3)

كانت أمي عندما ترسلني إلى مشوار ما تقول لي: «رجليك ما تعلِّمش على الأرض»، ظللت لسنوات طويلة أذهب لشراء العيش من الفرنة كراقص باليه، قفزات رشيقة على أطراف الأصابع مع استدارات محكمة في الهواء أقطع بها بعض الخطوات، حتى شاهدني أبي مرَّة في الشارع أحمل حبات الفلفل الرومي والباذنجان عائدًا من السوق وأنا أسير بهذه الطريقة، فرزعني قلمًا على القفا قائلًا: «أصل أنا ما خلفتش رجالة». لكن عندما كبرت عرفت أنني أدين بكثير من الفضل لأمي بسبب جملتها، صار عنوان مشاويري في الحياة كلها «رجليَّ ما تعلِّمش على الأرض». أتحرك بخفة ولا أترك الفرصة لأي شيء أو شخص أن يأسرني . تعلمت ألَّا تصبح لي جذور في أحداث أو أماكن أو مع أشخاص سأغادرهم أو سيغادرونني يومًا ما بطبيعة الحال والأحداث. بفضل أمي أصبحت شخصًا لا يعاني من اقتلاع الجذور عند الرحيل، بفضل أمي نجوت من آلام الفراق .

(4)

عرفت بعد انتهاء الدراسة الحرية في مسألة النوم .

لذلك أصبح النوم بالنسبة لي كبيرًا، مغامرة. يصعب توقع ما سأصادفه بعد قليل. تشغلني المسألة فعلًا قبل النوم، وأحاول أن أتحاشى كل ما سيقودني إلى كوابيس تنتهي بمطاردة كلاب ضالة في شارع نصف مظلم، أو أشخاص راحلين يعانون من مأساة ما، أو ضياع مفاجئ للصوت أو القدرة على الحركة... ليست كوابيس التي تطاردني، ولكن مشاهد مركبة شديدة التعقيد، أصحو مشغولًا بالبحث عن معناها، لا أجد في الماضي عادة أمرًا له علاقة بالحلم، لذلك أظل طوال الوقت في انتظار ترجمة المستقبل لما رأيته في أثناء النوم. كان خالي في العناية المركزة، ونمت، حلمت أننا في ملعب كرة قدم كبير، هو يلعب دور الجناح الأيمن وأنا رأس الحربة، لا أحد غيرنا في الملعب، كل مرَّة يرفع الكرة عرضية وأقفز لأسددها برأسي فأفشل، يكرر اللعبة ثم أفشل، يطلب مني ألَّا أتوقف، يكرر العرضية فأفشل في إحراز هدف، وهكذا حتى وجدت خالي ينسحب محبطًا قائلًا:

«مفيش فايدة». كانوا يحاولون إفاقته في الوقت نفسه، مرَّة ثم أخرى ثم ثالثة ثم «مفيش فايدة»، رحل في اللحظة نفسها التي أفقت فيها أفكر في معنى الحلم .

(5)

الطعام بالنسبة إليَّ هو العائلة. نصف ما تعلمته صغيرًا، تعلمته في جلسة الطعام بملابس المدرسة، على الطبلية ذات الطبقة الفورميكا الحمراء، أو على السفرة التي شغل النجار نهاية قوائمها على هيئة مخالب حتى يربط بينها وبين وجه الأسد المنحوت على باب البوفيه، لم يكن هناك فرق، كانت الدروس المستفادة هي الموضوع، العدل، الإيثار، الرضا، المجاملة، الشكر، الاستطعام على مهل، كان كل هذا يحدث بشكل تلقائي، لا تقُل «أنا ما باحبش السبانخ»، ولكن قل «السبانخ ما بتحبنيش»، هذا نصيب الغائب يُقتطع تمامًا كأنه موجود، تهادوا تحابوا، تكبر المحبة بهدية ليست أكثر من جناح دجاجة أو قطعة من كبدها الصغيرة، لا تغادر قبل أن تمدح من تعب، وتشكر من خلق، الحمد لله، مع التأكيد أنه «يستاهل الحمد». بعد أن كبرت ضاق خلقي، وصارت أفكاري حول الطعام تدور حول ملاحظاتي السلبية على ما تم تقديمه لي، أحاول أن أدفنها تحت الشكر والحمد، لكنني أدفنها حية فتفضحني .

(6)

أقول لنفسي دائمًا الحمد لله أن «البقاء لله»، هو معنا أينما كنَّا، بما يعني أننا معه، وهو باقٍ، إذن فكلنا باقون، فيما عدا ذلك هي أشكال وتجليات، في كل شكل تجربة، الجنين، الطفولة، المدرسة، الزوج، الأبوة، الشيخوخة، الموت، ولا أحد يستطيع أن يزعم أن هناك تجربة أحلى من الأخرى، الممتع حقًّا كما يقول أحد الأكابر أنك خرجت من العدم .

غنوة

واقفًا في مكاني كنت أتنقل بالريموت بين محطات التلفزيون بحثًا عن شيء لم أعد أتذكره الآن، في إحدى القفزات من محطة إلى أخرى وجدت أغنية «زي الهوا» في بدايتها، أرغمتني الموسيقى على أن أنزل الريموت كجندي متحفز اكتشف أن البقعة التي وضع قدمه فيها آمنة فوضع سلاحه جانبًا، سحبتني جملة مزيكا تلو الأخرى، فجلست على طرف المقعد ثم أسندت ظهري ثم «تربعت»، لم تكن مجرد أغنية جميلة، كان هناك ما هو أبعد من ذلك .

شاعر شاب اسمه محمد حمزة، وملحن موهوب اسمه بليغ حمدي، في نهاية الستينيات، يغزلان هذه الأغنية، ليقف حليم متباهيًا بها على المسرح عام 1970، لا يمكن اعتبار الأمر مجرد موهبة، كل شيء حول الشاعر والملحن شاركهما صناعة هذه الأغنية، المشهد الذي تطل عليه شرفة منزل الشاعر، نوع الجيران الذين كان يلتقيهم الملحن كل يوم في الأسانسير، خامة القميص الذي كان يرتديه الشاعر عندما عثر على دخول الغنوة، مقال كاتبه المفضل الذي قرأه صباح هذا اليوم، كل ما مر به الملحن في الشارع باتجاه مكتبه، الذوق، ورائحة الهواء، والألوان، وانسياب المشوار، ونظام ما، يطل من حوله في شكل الشجر قبل البيوت، وملابس المدرسة قبل شياكة متقاربة في مظهر الآنسات، طعم رغيف الخبز له دور، وبكارة الفاكهة التي لم تمسها كيمياء، ورابطات عنق نهارية لا تكلُّف فيها، الأسماء التي توقف أمام ما تقوله على شاشة تلفزيون خاصم الألوان، فمرت الحقيقة عبرها دون تزيين، شكل البحر الذي مر في باله زيارته في أقرب فرصة، أدب سائق التاكسي، واحتفاء المحلات الأنيق ببضاعتها، ونوع الجمل المتبادلة بين الناس في الشارع، أقل نسبة تشويش ممكنة، حرية أوسع بدون عبودية لأية أجهزة تحدد وتغير مسارات الحياة طول الوقت، التزامات مادية لا تقودك إلى الجنون، القدرة على تفادي الابتذال المختبئ في فكرة أن الفن مناسبة لأكل العيش .

ملمس الورقة الشفافة والقلم الرصاص، وحنان في نوع الخشب المصنوع منه العود يدويًّا، يسمح للملحن أن ينحني معه كعاشق، رائحة مداخل البيوت، وعلو هامة الأسقف، وبراح النوافذ الخشبية، واختلاط رائحة الفخار المبتل برائحة الطين بنسمة تعبر بها زرعة النافذة عن نفسها، ألوان تطاردك في كل مكان، أفيشات سينما عبارة عن أعمال فنية تحاصرك بلطف، شارك في صناعتها رسام ريشته بصيرة، وخطاط اختار لما يقوله الفيلم خطًّا يليق به، مع تأكيد على أن الفيلم «بالألوان الطبيعية ».

لم يكن ما أراه مجرد مطرب في حالة سلطنة مع أغنية عظيمة خالدة، كنت أرى هناك خلف الأغنية تفاصيل كثيرة، جعلتني على بُعد أكثر من أربعين عامًا أصدق ما يقوله، وأنهار مكاني جالسًا متأملًا كل «ما لا يقوله حليم»، لم يضع حمزة وبليغ وحليم ما يجيدونه في الغنوة، وضعوا كل ما جعلهم قادرين على الإجادة وساعدهم على ذلك، غنوة تلخص مِمَّ صُنع هذا الثلاثي، بغض النظر عن كون ما ساعد في صنعهم أصبح «زي الهوا ».

مروا أسفل شرفتي

مكالمة مهمة جعلتني أتحرك في البيت ذهابًا وإيابًا حتى انتهت وأنا أقف في «البلكونة». وقفت أسترجع ما دار خلالها، لمحت سيارة أحد الجيران تتوقف ثم ينزل منها جاري ويغادرها حاملًا أكياس البقالة، بعد دقائق قليلة توقفت سيارة أخرى لجار آخر نزل منها أيضًا وهو يحمل أكياسًا مشابهة، بعد قليل توقفت سيارة ثالثة ونزل منها جار آخر، لكنه لم يحمل شيئًا، دخل إلى العمارة وغاب، ثم خرج ومعه ابنه الطفل يرتدي ملابس تمرين كرة القدم، كان الابن يحتضن الكرة، بينما الجار يحمل حقيبة الابن الملونة، استقلَّا السيارة ثم انصرفا .

ثلاثة آباء مروا أسفل شرفتي، كان كل واحد محملًا بمسؤولية ما. يقول إحسان عبد القدوس: «الرجل هو البيت، ولكن البيت ليس الرجل»، وهي جملة منصفة تمامًا .

إذا وقف الأب بطوله في الصحراء، فستجد في هذه النقطة بيتًا، القرب يكفي ويبتلع العراء .

يهتف الطفل مدفوعًا بالفطرة: «بابا جه»، ولا يهتف أبدًا: «ماما جت»، ربما يقول لها عند حضورها ما هو أهم، لكن «بابا جه» تخرج معبَّأة بطمأنينة ما، بغض النظر عن كون الطفل عندما يكبر قليلًا ويبحث عن راحته في البيت، يسأل خفية: «هوَّ بابا مش نازل النهارده؟»، لكن يظل وجوده في الدائرة طوق نجاة، وجوده في حد ذاته هو النجاة، يقول «سيجموند فرويد»: «عند التفكير في حاجات الطفولة، لن يجد الواحد حاجة بقوة الحاجة إلى حماية الأب»، ويقول الشاعر الفرنسي: «لا يوجد مكان في العالم يستطيع الإنسان أن ينام فيه بأمان مثل غرفة أبيه ».

الأمومة غريزة، لكن الأبوة، لا أعرف، أفتش عن كلمة تصف الرحلة الصعبة، تتغير أشياء كثيرة في الرجل ما إن يصبح أبًا، أبسطها أنه يُقيِّم كل شيء ويحسبه من خلال أولاده .

قد يتنازل عن حقوق له هنا أو هناك قبل الزواج بحثًا عن راحة الدماغ، لكنه وهو على قيد الأبوة لا يتنازل عن شيء، يُسقط نفسه، ويعتبر أية حقوق هي لأولاده، هو أيضًا قبل الزواج لا يتنازل عن أفكار وطريقة عمل وجهات نظر، حتى لو كلفه الأمر أن «يقعد في البيت»، لكنه بعد الزواج يتنازل قليلًا، ويهذب انفعالاته متفاديًا أن يكون سببًا في أذى ما، قد يطول حياة أبنائه .

يتعلم الرجل الأبوة بالوقت .

يراقب كل شيء .

يبدأ من الصفر، طائرًا مغردًا يدور حول نفسه، ونفسه هي عالمه، مشغولًا بتشكيل مستقبله وسعادته، ثم يتحوَّل بالأبوة باحثًا عن مستقبل وسعادة آخرين، بما يعني أن يصبح رجلًا حكيمًا، ومكافحًا، وميسور الحال، وطبيبًا، وبودي جارد، وحائط مبكى، ومفسر أحلام، ومنظم حفلات، وحلال مشاكل، وملاحًا على الطريق، ومريضًا إذا فكرت الابنة أن تلعب «دكتور»، وموديلًا إذا أحبت أن تجرب الرسم، وتلميذًا مطيعًا في الفصل إذا أرادت أن تلعب «مُدرِّسة»، وإنسانًا آليًّا يلملم أحزانه بضغطة زر متفرغًا لأحزان الآخرين، وذوَّاقة يُعلِّم غيره فنون الطعام و«يستطعم» اللقمة الحلوة على أفواههم، ورقيبًا يتابع ما يطالعونه تلفزيونيًّا أو سينمائيًّا، وباحثًا يفتش عن إجابات عن الأسئلة الصعبة (هوَّ ربنا بيشتغل إيه؟)، وأمين شرطة يتمم كل ليلة أن كل واحد في فراشه، ويتأكد من أن «الترباس مقفول» وفيشة السخان منزوعة، ومحاسبًا صاحب خبرة في الودائع والفوائد والقروض والأقساط، ثم ناسكًا يتعبد في محراب الزوجة التي لولاها لفسد كل شيء .

وجدتها ...
الأمومة غريزة، والأبوة مشروع .
يعرف الأب جيدًا أن الجميع يقيّمه هو شخصيًّا بنجاح هذا المشروع أو فشله، ولخاطر هذه الفكرة يمشي على حبل طول الوقت .
يقول «إمبرتو إيكو»: «أؤمن تمامًا أن ما أصبحنا عليه يعتمد على ما تعلمناه من الأب، في اللحظات التي لم يكن يحاول فيها أن يعلمنا شيئًا»، ويقول المثل الإنجليزي: «كما يكون الأب.. يكون الابن ».
يردد البعض مقولة: «الشخص الوحيد الذي يريد الرجل أن يكون أفضل منه هو ابنه»، كمثل يعبر عن التضحية والتفاني، لكني أؤمن أن الرجل يرى في محاولة أن يجعل ابنه أفضل منه فرصة لإصلاح كل ما ارتكبه من أخطاء أثناء الرحلة، يريده أن يصبح أفضل منه على سبيل الاعتذار .
يُقدِّم الأب أشياء كثيرة آخرها التمويل المادي، وفي مقدمتها التمويل النفسي، يخاف الأب وهو يتعامل مع طفله مما قد يؤذيه نفسيًّا في طفولته، لكنه يخاف بشكل أكبر مما قد يؤذيه مستقبلًا، يعرف جيدًا أن جزءًا كبيرًا من قوام مستقبل الابن ما تركه الأب من تفاصيل تدعو للفخر أو التواري خجلًا، وينشغل أن يشب الابن معافى نفسيًّا ويكمل هكذا. يقول «جيم فالفانو»: «قدم لي الأب أعظم ما يمكن تقديمه لأي شخص.. فقد آمن بي». ويقول «فيناس ويليامز»: «قاتل أبي معي.. لقد كان حلمي هو حلمه شخصيًّا»، هذا الدعم هو حركة الأب مع ابنه في كل ميدان يقود إلى المستقبل، من المدرسة إلى التمرين .
خُلقت المرأة أمًّا، لكن الرجل يجاهد ليصبح أبًا، ويقول «بوب جون»: «من السهل على الأب أن يحصل على أطفال، لكن من الصعب على الأطفال أن يحصلوا على أب ».
ينسحب الأب بالوقت من ملاعب «الشقاوة»، ويعرف جيدًا أن ابنه ليس جزءًا منه ولكن العكس، فقد أصبح هو جزءًا من ابنه، يكافح ليصبح الجزء المفضل، تحقيقًا للمقولة الشعبية: «قبل ما يشوفوه.. قالوا كويس زي أبوه ».
وصلوا جيراني محمَّلين بأكياس ظاهرها البقالة وباطنها المسؤولية، أكاد أسمع «بابا جه»، كنت أُجري مكالمة للاتفاق على عمل، لم أكن يومًا من المدققين في موضوع الأجر طالما هناك فرصة لتقديم ما أحبه، هذه المرَّة كنت أتفاوض قدر استطاعتي ليقترب المبلغ من مبلغ قسط مدرسة ابنتي، ووجدت في مشهد الجيران تسلية عظيمة لي .

كل الناس بيقولوا يا رب

كان فريق الأهلي بحاجة للفوز بفارق هدف، حتى يتأهل إلى المرحلة التالية في إحدى البطولات الأفريقية، ذهبت إلى الاستاد مع ابن شقيقتي محتفظًا في جيبي بعلم الزمالك لأخرجه عندما يحرز الأهلي هدف التأهل. كنا في الدرجة الثالثة، والوقت يمر سريعًا والأمل يبتعد، وقف شخص ما خمسيني وأدار ظهره إلى الملعب ناظرًا إلى الجماهير، وهتف: «كل النااااس بيقولوا يا رب»، فرد عليه الجمهور: «يااا رب». كنت أعرف أن هذا المشهد يتكرر كثيرًا في الماتشات، لكنها كانت المرَّة الأولى التي أكون طرفًا فيه .

أكتب الأغاني أحيانًا، وفكرت أن أضع نفسي مكان الشاعر الغنائي «حسن السوهاجي»، جهة ما ربما الإذاعة المصرية تطلب أغنية دينية، من رابع المستحيلات أن أعثر بسهولة على دخول يلخص كل شيء بنفس قوة «كل الناس بيقولوا يا رب»، حاول السوهاجي أن يلتقط معجزة يمدح بها الله، فلم يجد معجزة أوضح وأقوى من كون كل الناس بلا استثناء تقول يا رب .

دخول حسن السوهاجي لا يتطابق أبدًا مع الجملة الموروثة التي تقول إن «الشعب المصري متدين بطبعه»، هناك فارق كبير بين الجملتين، من الصعب إطلاق حكم نهائي بكون الشعب كله متدينًا، بالذات إذا دققت في بديهيات التدين، من إتقان العمل، إلى العلاقة بالجار، مرورًا بالنظام والبشاشة، لكن يمكنك بسهولة تامة ويقين كبير أن تقر بكون «كل الناس بيقولوا يا رب ».

قد تكون الصيغة صحيحة إذا قلت إن الشعب المصري «مؤمن» بطبعه، العمود الفقري لمعتقد المصري في الحياة يتكون من فقرات كلها معجزات، يؤمن المصري بالمعجزات ويتكئ عليها بثقة كاملة، معجزة «الستر» التي يرى فيها يد الله حتى يكاد أن يقبلها، معجزة «البركة» التي يعوِّل عليها أكثر من الرزق، يؤمن أن الأخير لا حيلة فيه، لكن الأمل باقٍ في التماس البركة .

يؤمن بمعجزات «العين عليها حارس»، و«الأم في قبرها بتدعي لابنها» و«من قال الحمد لله شبع»، و«اللقم بتمنع النقم»، و«جوزوهم فقرا يغنيهم ربنا»، و«ربنا قبل ما يبلي بيدبر»، و«تسخير قلوب من أحوجك إليهم». يتودد إلى الله بمصيبته، يقول لنفسه «المؤمن منصاب»، محيلًا أمر المصيبة إلى صاحب المعجزات، وعندما تفشل جميع حيله مع شخص ما، ويعييه العجز، يحيل الأمر للوحيد القادر على تحقيق العدل الذي يحتاج تحقيقه لمعجزة «بيني وبينك ربنا». يؤمن بمعجزة «الحسبنة»، ويصرخ جزعًا إذا فعلها أحدهم معه قائلًا: «إنت بتحسبن في وشي؟»، يعرف أنها معجزة نافذة، فيربكه أن يبشره بها أحدهم في وجهه .

التقط حسن السوهاجي الفكرة، وكان واعيًا للفرق، وتجلت أخلاق الشاعر كما يجب في كونه لم يكتب كلمة واحدة عن العبادات، ولا صلاة ولا صوم ولا زكاة، لم يضع شروطًا، ولم ينصب محكمة لأحد. ليست صدفة، كان السوهاجي يعرف ما يقوله فكتب: «هو اللي ما يخفى عليه حد.. عالم بالحسنة وبالذنب»، بما يعني «محدش له دعوة»، الله يعرف كل شيء ولا أحد يمتلك كتالوج الحسنة والذنب. ترك السوهاجي الموضوع في يد الله فقط، وزاد عليه قائلًا: «كل الناس محتاجة إليه.. وينجيها في وقت الكرب». قال «كل الناس»، ولم يخص أحدًا بعينه بالنجاة، ثم أغلق السوهاجي الملف واضعًا نقطة في نهاية سطر وجهة نظره قائلًا: «هوَّ تعالى وفضله عجيب»، ليسد بفكرة «فضله عجيب» الباب في وجه كل من يحاول أن يضع قانونًا لفضل الله .

كان السوهاجي يعرف جيدًا أن الشخص الذي يرفض وجود شيء فوق المصحف ولو ورقة جرنان، ربما لم يحدث أن فتح هذا الشخص المصحف يومًا ليقرأ ويتدبر. يعرف أن الشخص الذي يهرع ليعدل حذاءً مقلوبًا، حتى لا يكون باطنه إلى وجه السماء، ربما كان مفطرًا في رمضان الماضي بلا عذر. يعرف أن الشخص الذي يمنع بقوة شخصًا آخر من المرور أمام شخص ثالث يصلي، ربما لم يركعها منذ زمن. كان السوهاجي يعرف أن التعلق بالله لا خلاف عليه، أما التدين والعبادات فهي شأن كل واحد مع نفسه، هو القادر على أن يضبطها ويديرها دون وصاية من أحد .

وضع السوهاجي الوصاية جانبًا، وخاطب الناس بما يعرفه جيدًا، فكان أن نجحت الأغنية وأصبحت أيقونة الأغنيات الدينية، خاصة أن من يغنيها بالفعل هم «الناس»، مجاميع الناس التي تقول «يا رب» ولا مطرب يقودهم، وفي خلفية اللحن دائمًا مجاميع أخرى تقول بإيقاع ثابت متكرر: «يا رب.. يا رب.. يا رب»، تقولها كما يقولها أي شخص عادي، بكل ما فيها من استجداء صادق مفرط في التسليم .

كان الملعب يرتج بالهتاف الذي أطلقه مشجع الأهلي الخمسيني، وفي كل مرَّة تزيد أعداد المشجعين الذين يردون عليه «يااا رب»، قررت أن أُخرج من جيبي علم الزمالك لأعبر عن تضامني، صدمني مشجع أهلاوي يجلس خلفي لمح زملكاوي آخر في المدرج يلوح بعلم الزمالك، فهتف قائلًا: «خدوا منه والنبي العلم ده، أنا باتشائم منه»، فاحتفظت بالعلم لنفسي، لكنني كنت سعيدًا كما ينبغي لشخص كان موجودًا في لحظة كان فيها كل الناس بيقولوا «يا رب ».

عماد وعمر

خلق المضاد الحيوي في روحي أجواء مقبضة، كنت مضطرًّا للنزول، لم تكن حواسي تليق بشخص عليه أن يقود سيارة في شوارع القاهرة، استغنيت عن سيارتي، وأسلمت نفسي «لكابتن» أوبر. في الطريق كنت أحارب للتخلص من سخافة الدواء التي تلفني، طلبت من الكابتن أن يُشغل الراديو. لم أعرف إن كان المسؤول عن «البلاي ليست» في الإذاعة قد اختار أن يلعب أغنية لعمر فتحي، تليها أغنية لعماد عبد الحليم، أم أن الأمر كان محض مصادفة، أم أن السيناريو الذي رسمه لهما القدر قبل ثلاثين عامًا ما زال ساريًا بنفس المنطق؟

مع نهاية الثمانينيات كانت التجارب الموسيقية كلها في كوم، ووضع الشارع في كوم آخر، تجربتان بالذات، تعبران عن مشاعر الناس اليومية البسيطة، فعيَّن عمر فتحي عمدة على منطقة الأفراح، وعيَّن عماد عبد الحليم عمدة على الأحزان، لا أحد يعرف كيف استقرت التقسيمة على هذا الشكل، لكن بمرور الوقت كانت الناس العادية ملح الأرض، تترك نفسها للبهجة مع عمر فتحي الذي اشتهر وقتها بأن هناك فتيات يتنازلن عن بعض طلباتهن عند الزواج مقابل أن يحيي فتحي الفرح، أما عماد فقد صار رفيق أحزان الغربة («مهما خدتني المدن»)، أو أحزان سوء الحظ التي اشتهر بها المصريون («ليه حظي معاكِ يا دنيا كده »).

وفي يوم استيقظ الشارع على أخبار تخص قطبي مشاعره: عماد عبد الحليم في لندن يعالج كليته الوحيدة التي تأثرت بتبرعه بالأخرى لوالدته لينقذها من الموت، وعمر فتحي في المستشفى يعاني من أزمة قلبية وقصور غير مطمئن في الشريان التاجي. تمسك الناس بمحبة النجمين الشابين أكثر، خوفًا عليهما وهما الأقرب إلى ما يفهمه القلب ببساطة .

قبلها بسنوات كان عماد ابن الأسرة الإسكندرانية الفقيرة محظوظًا بغنائه في فرح الطبيب الخاص لعبد الحليم حافظ، عاد به حليم إلى القاهرة وقدمه للناس، قالوا إنه ابن علاقة غير شرعية، وهو أمر لو كان صحيحًا لأخفاه حليم عن الأنظار، وقالوا إن حليم تبناه لينافس هاني شاكر بدلًا منه، وهي حكاية بلا منطق، فكيف لصبي مراهق أن ينافس مطربًا شابًّا نجح بالفعل؟ سالت دموع حليم وهو يراقب من الكواليس تصفيق الناس لعماد، ثم تبناه ماديًّا ومعنويًّا وفنيًّا، كان يلزمه بحضور البروفات معه . تفتحت مشاعر الصبي على مثله الأعلى، وهو يغني تحت وطأة النزيف وجلطات الساق وتعب الأدوية، عرف الحزن مبكرًا وكان مؤهلًا له، يقول: «ولدت وبداخلي حزن لا أعرف مصدره » ، واكتملت الأحزان برحيل حليم، كان الصبي قد عرف النجاح، وبدون مرشد تخبط في الطريق لكنه لم يتوقف .

في المقابل كان عمر فتحي في العراق بعد أن أنهى كلية الزراعة، قالوا له إنهم يسلمون الوافدين فيلًّا وقطعة أرض ومعدات لاستصلاحها، كان وهمًا، دفعه للسفر إلى إيطاليا ومنها إلى سويسرا وهولندا، ثم عاد، وفي يوم وصوله قرأ إعلانًا يطلب مطربين لإحدى الفرق، ألقى موالًا دفع به إلى فرقة رضا، حقق نجاحًا جعله شريكًا في تجربة فرقة المصريين مع هاني شنودة، ثم قرر أن يستقل، وبدأ رحلة جديدة من شارع الهرم، ولكن بشروطه .

كان عماد يتنقل بين نجاح سريع وفشل سريع، كان يقسو على نفسه كثيرًا، وكان يواجه الفشل بروح تحدٍّ نادرة. في لقاء تلفزيوني سألوه عن الشخصية التاريخية التي يود أن يصبح مكانها، قال: «طه حسين، لأنه كان «قد التحدي»». قدَّم حفلًا ناجحًا كان بمثابة نقلة فنية، وخرج منه ليجد

الشرطة العسكرية في انتظاره تلقي القبض عليه ليؤدي الخدمة، يغيب ويعود أقوى . يتم القبض على مجموعة فنانين بتهمة التعاطي، يظهر اسمه في القضية، يبرئه القضاء، لكن الصحافة تصر على الإدانة، تطارده الديون لكنه ينتصر، تحتاج أمه لكلية فيتبرع لها، وفي كل مرَّة يعود ليلتقط أنفاسه ويصادق أحزانه بأن يغني لها، أحبه الناس لأنه كان صادقًا .

قال عمر لزملاء جيله، الحجار والحلو ومنير، سنغني في شارع الهرم لأنه النافذة الوحيدة المتاحة، لكن بلا «نقوط»، بلا أغانٍ مبتذلة أو رقص شرقي، فغيَّر هو وجيله شكل الشارع، وتحوَّل لفترة إلى مكان تقصده العائلات. طلب منه يومًا أحد الأثرياء العرب أن يحيي حفلًا في منزله، هناك كانت الأجواء مبتذلة، فانصرف عمر دون أن يغني، كتبت الصحافة عن جرأته، أعجب بها محمود يس فتبنى موهبته وأنتج له فيلمًا ناجحًا . في وسط النجاح تقدَّمت فتاة ببلاغ تتهم عمر بالاعتداء عليها، كان عمر يراها للمرَّة الأولى في حياته، واتضح أنها معجبة مجنونة به، انتهى الأمر بسلام، لكن «الخضة» جعلت عمر يُصاب بشلل في العصب الحائر، دخل المستشفى، وهناك قالوا له إن حالة قلبه ليست بخير، كانت تهاجمه النوبات فيدخل المستشفى، يتعافى قليلًا ثم يهرب في منتصف الليل ليغني. كان يحب الحياة، وكان هذا الحب يحتل حنجرته فلم يخرج منها سوى البهجة .

كان عماد يؤمن أن الصحافة تحاربه بالخوض في حياته الشخصية، في المقابل كان عمر غير مهتم بتجاهل الصحافة، وقال: «الصحافة هتكتب عني لما أموت». قال أنيس منصور عن عمر: «كان مرحه معديًا، ولم نكن نعتقد ونحن نراه بهذه الحيوية أنه كان عليل القلب». أما عماد، فقد قال إنه لا يقرأ إلا لأنيس منصور، وكانت مشكلته أنه غزير الإنتاج. قال: «للأستاذ أنيس 120 كتابًا في متوسط ثلاثة جنيهات، بما يعني أن الواحد سيدفع 360 جنيهًا ثمنًا لمزاجه هذا، لكن على أي حال هذا أرخص كثيرًا من بعض الأمزجة الأخرى ».

أثناء وجود أحد الأصدقاء في بيت عمر لاحظ أنه يراقب «الشغَّالة» من بعيد، ثم قام فجأة وفتش كيس القمامة الذي كانت تحمله في طريقها للانصراف، ثم وجد بداخله بعض أشيائه الثمينة، انفعل عمر بشدة وهو يسألها إن كان قد قصَّر معها يومًا، كان يفتش عن سبب للغدر، لكنه سقط قبل أن يجده، لم يتحمل قلبه الانفعال، عند وصول الطبيب كان قد فارق الحياة. كان حظه أوفر من عماد، فقد عثروا على الأخير جثة هامدة في أحد الشوارع الجانبية بالقرب من منزله، ولم يعرف أحد حقيقة ما حدث. استكملت الصحافة مسيرتها مع عماد حتى بعد وفاته، وفسَّرت الوفاة بالمخدرات. سأله صحفي ذات يوم عن الإدمان، فقال: «أنا مش لاقي آكل علشان أدمن». كان عند وفاته مطاردًا بعدد قليل من الشيكات بدون رصيد، وعدد أكبر من علامات التعجب من شخص تطابقت حياته مع أغنياته إلى هذا الحد .

عاش الشارع المصري لفترة طويلة وهو يتسند على جدارين صادقين: واحد في أفراحه، والآخر في أحزانه. كان عمراهما قصيرين، وانقضيا مبكرًا، لكن وللعجب، ما إن تظهر في الأجواء صدفة أغنية لأي منهما حتى ينتصب الجداران فجأة بالقوة نفسها التي كانا عليها قبل ثلاثين عامًا .

الدار البيضا

يكاد الواحد من فرط القرب ألَّا يرى تفاصيل من يعيشون حوله، يحتاج إلى لحظة يقف فيها بعيدًا، خارج اللوحة، ساعتها سيراهم بشكل أوضح، وسيعرف عنهم ما لم يكن يعتقد أنه يعرفه .

لم أشعر قَطُّ بالتعب طوال الأيام التي كنت أنتقل فيها بين مدن المملكة المغربية، لكن في «الدار البيضاء» كنت قد انهرت تمامًا، وقررت عدم الخروج من البانيو المملوء بالماء الساخن حتى موعد طيارتي في اليوم التالي، لكنني خالفت القرار وقررت قبل نهاية اليوم أن أنزل للسوق لشراء بعض الهدايا للأقارب والأصدقاء، متمنيًا أن يخفف الله كل هذا الإرهاق وهو يعلم أنني سأعاني في مشواري هذا لإسعاد الآخرين .

كانت الشمس لم تغب بعد، والأمطار نصف قوية، تبعد السوق عشر دقائق سيرًا على الأقدام. أمام بوابة السوق القديمة توقفت الأمطار تمامًا، ثم بزغت الشمس بقوة وكأنها مصباح يتوهج قبل أن يحترق، وهبت رائحة هي خليط من عبق السوق القديمة ونسمات المحيط الأطلنطي والطمي المغربي الذي تشبَّع بماء المطر، ثم جاء صوت أذان المغرب بلكنة أهل المغرب هادرًا، فوقفت وأغلقت عينيَّ محاولًا امتصاص اللحظة حتى نهايتها .

فتحت عينيَّ وأنا أشعر بأنني مقبل على ساعات من السحر الصافي، مع حلول الظلام تغلق محلات السوق أبوابها، لم أكن أعرف المعلومة، فشاء القدر أن أتجول بمفردي في أزقة السوق وكأنني البطل الوحيد في هذا المشهد. كنت أشعر بونس يجرحه كل قليل تأنيب العودة إلى مصر بلا هدايا. قلت لنفسي: شوكولاتة من السوق الحرة ستحل كل المشاكل.. ثم إني ما كنتش في إعارة يعني. ظللت أتجول وأتنقل بين محطات مختلفة من الموسيقى والغناء كانت كل واحدة تطل من أحد شبابيك البيوت القديمة داخل السوق، إلى أن وقفت أمام محل وحيد مضاء وصاحبه يجلس أمامه يدخن ويشرب الشاي، نظر لي الرجل نظرة «إنت إيه اللي أخَّرك؟»، ثم ابتسم، فدلفت إلى محله المتواضع الذي يبيع الجلاليب المغربية الرجالي، حكيت له قصتي، فطلب مني أن أنسى المحل، وسيحضر لي كل ما قد يخطر في بالي من الهدايا المغربية .

كانت لسعة البرد محببة إلى القلب، وكان الرجل بشوشًا، كان يُعد لنا براد الشاي المغربي ويستمع إلى طلباتي، وضع في السماعات فلاشة عليها أغاني مديح نبوي مغربي، وتركني في المحل مندمجًا مع المديح الذي لم أميز منه سوى: «الزم الباب إن عشقت الجمال.. واهجر النوم إن أردت الوصال... الله يا مولانا الله الله ».

ثم هلَّ الرجل من بعيد وخلفه شاب صغير بنضارة يحملان بضاعة من مختلف المقاسات، من عبايات حريمي ورجالي، وقطع من الصابون المصنوع يدويًّا بمختلف أنواع الزهور، وبُلَغ مغربية .

مرت ثلاث ساعات أصف للرجل مقاسات صاحب كل هدية، كانت تلك اللحظة التي وجدتني أتأمل فيها الأحباب من جديد، وكأنني أشاهدهم للمرَّة الأولى: فلان قصير وصدره نحيل، لكنه صاحب كرش ويحب العطور، وفلان ضخم ومتناسق ربما أطول مني قليلًا ويحب الأحذية البراقة، فلان أهم ما يميزه أكتافه العريضة وسوالفه سيليق به زعبوط مغربي بلون زاهٍ، فلان أطيب من عرفت سيفرح كثيرًا بتلك المسبحة المصنوعة من خشب، لونه قريب من لون الترمس. كان الأقارب والأحباب حاضرين في المحل الصغير، وكأن كل واحد يختبر هديته بنفسه قبل الشراء. كنت

أسترجع كل واحد على حدة، فكأنني أكتشفه من جديد، هناك في حياتي من لم أعرفهم جيدًا إلا في هذه اللحظة، وهناك من اكتشفت أنني أستطيع أن أخمن مقاس قدميه، هناك في قريباتي من يليق بها هذا الجلباب البيتي المغربي الملون، وهناك من خُلقت هذه العباءة الوقور من أجله .
نسيت الألم، ولم يتوقف الشاي المغربي للحظة، وكان المديح يعيد نفسه، وبدأت الأمطار تهب من جديد، وجاءت لحظة الحساب، فأعدنا أنا وصاحب المحل اكتشاف أنفسنا وعلاقتنا ببعضنا من جديد، قال لي المطلوب ثم استشعر في عينيَّ توترًا ما، هو يعرف أنني بلا خبرة في الأسعار، وربما يراودني شعور أنني ضحية، الحقيقة أنني توترت من نظرات متبادلة بينه وبين الشاب، تبدَّل التوتر ابتسامًا عندما أخرج الشاب من جيبه كارنيه معهد الصحافة قائلًا إنه شاهدني من قبل في أحد البرامج، وعرف أنني كاتب، لكنه لم يكن متأكدًا .
صاحبني الشاب حاملًا الهدايا إلى الفندق يطلب النصيحة كصحفي محتمل، قال لي إن البائع خاله، وإنه كان نائمًا يحلم بأم كلثوم قبل أن يوقظه الخال للمرور على مخازن البضاعة حاملًا إليَّ كل ما قد أحتاجه، وبإخلاص تام قدَّمت له من النصائح ما يليق بشخص أرسلني القدر إليه في يوم ممطر .
في الفندق، كنت أتأمل الهدايا وأصحابها، حمدت الله أن سخر لي من يأخذ بيدي في هذه المهمة، أو ربما سخرني أنا شخصيًّا لأقدم لهذا الشاب الصغير ما قد ينفعه مستقبلًا، لا أعرف، لكنني نمت يومها سعيدًا كشخص ابتعد بما يكفي ليشاهد عن بُعد جنة الأحباب التي يعيش فيها ولا يدري .

الحياة داخل فايل «Word»

كانت زوجتي تسألني: «نِفسك في إيه؟»، كانت تقصد غالبًا طعام الغداء، لأنني عندما قلت «نِفسي أعمل كتاب عن...» قاطعتني قائلة: «كتاب إيه بس؟ اطلع بقى من فايل الوورد اللي إنت عايش فيه ده»، وضحكنا .

أعيش داخل فايل وورد بالفعل منذ سنوات، لم تعد الكتابة مهنة، أصبحت طريقة حياة، فايل الوورد مفتوح طوال اليوم، أُلقي فيه أفكارًا ثم أضعها على جنب، أكتب سطورًا طويلة ثم أكتشف أن هذا المعنى سبق أن قاله أحدهم، فأسحب الفايل على وجهه حتى سلة «الريسايكل بن»، حتى خطط الحياة أفتح لها فايل وورد لأسجل ما أنوي القيام به. أمتلك جهازي «لاب توب»، لم يحدث أن رأيت أحدهما مغلقًا موضوعًا بكامل احترامه فوق مكتب، لكن دائما ما أتعثر فيهما، واحد مفتوح بالقرب من السرير، والآخر على السفرة قريبًا من البلكونة، تتبدل أماكنهما، مرَّة على الأرض، ومرَّة في المطبخ، حسب المزاج وحسب المكان الذي يشبه ما يفكر الواحد أن يكتبه، تيبسا على هذا الوضع. والآن لديَّ «لاب توب» من الخطر أن أغلقه، لأن الشاشة «زرنجت» وانفصل أحد جانبيها بعد أن سحلته طفلتي الصغيرة ككلب بلدي بعرض الحجرة، ربما كان لديها فضول أن تجرب اللعبة التي ترى والدها يلعبها طوال اليوم .

أعيش داخل فايل وورد، لخصت زوجتي حياتي ككاتب، لا توجد إجازة في هذا العمل، هي المهنة الوحيدة التي لا راحة فيها، يحصل الضابط والمهندس والوزير والطالب والبواب على إجازة، لكن الكاتب لا يعرف من الذي يمكن التقدم له بطلب إجازة؟ فالعقل لا يتوقف عن التأمل، والبحث عن الأفكار في كل شيء يقابله. أُخرج المحمول على الشاطئ في المصيف، تعتقد زوجتي أني بصدد التقاط سيلفي جماعي، لكنني أخرجه لأكتب أن «الموج أكثر جبنًا من أن يفكر في الرجوع، والرمال ما هي إلا أمواج مهزومة». أستخرج فيديو حفل زفافي، ترى زوجتي في الحركة لفتة رومانسية، والحقيقة أنني كنت أرى آخر تسجيل ظهر فيه أحد الراحلين الذين كنت أنوي أن أكتب قصة عنه. في فاتورة الكهرباء الغالية فرصة ليست لتنظيم مصروف البيت، ولكن لكتابة مقال يتأمل ظروف الناس. في السينما لا أرى مشهدًا على الشاشة، لكن أراه مكتوبًا في السيناريو يمينًا وشمالًا، ولا أضحك على الإفيه، لكن أحاول أن أخمن طريقة تركيبه. أتفادى المكالمات التلفونية وأُفضِّل الرسائل. قال لي صديقي إنه عندما تصله رسالة مني يُعدُّ كوبًا من الشاي ويشعل سيجارة وينتحي جانبًا، لأنه يعرف أن الرسالة ستحتاج لأكثر من ربع ساعة لقراءتها. توقفت عن القيادة بعد أن صرت أتلقى التشويح والغضب من الشباك اليمين والشمال، ومن المارين أمامي. كنت ضيفًا في برنامج إذاعي، وقال لي المذيع في الفاصل: «اختر أكثر أغنية تحبها لأختم بها اللقاء»، فدارت فصوص المخ تكتب عن الأغاني التي أحبها ولماذا أحبها، حتى قال لي المذيع: «بس حاول تقول لي على الغنوة دي النهارده لو سمحت ».

أعيش داخل فايل وورد، وهو مكان لا يتسع لكثيرين، مجرد شخص واحد وأفكار كثيرة. قال أحد الكُتَّاب الكبار قديمًا إن أكثر ما يرعبه هو صفحة بيضاء خالية، أتذكره دائمًا هو ومقولته، صارت جملته تحرك حياتي، أفتش طول الوقت عما أستطيع أن أواجه به صفحة وورد بيضاء خالية، الخوف منها هو الذي منح حياتي هذا الشكل. ذكرياتي لا أسترجعها في جلستي مع من أحبهم، لكن أدخرها للكتابة. جلد الذات وتأنيب الضمير لا يتعلقان بحياتي كإنسان ربما تعرض غيره للأذى

بسببه، لكن جلد الذات دائمًا له علاقة بأخطاء مهنية مرَّت خلسة من الواحد إلى الورقة البيضاء. أحلامي ليست كوابيس ولا أحلامًا سعيدة، هي مادة خام يمكن تحويلها إلى كتابة، حدث ذلك بالفعل في كتاب سمَّيته «طريق التوابل». هناك نكتة قديمة عن مذيعة كانت تسأل الناس: «المشط بيفكرك بإيه؟»، جاوبها كثيرون، إلى أن قال لها رجل: «المشط يذكرني بالجنس»، سألته: «وما العلاقة؟»، فقال: «أنا أي حاجة بتفكرني بالجنس».. أنا أي حاجة بتفكرني بالكتابة، حتى لو كان «إفيهًا» عابرًا من زوجتي .

صوت بلادي

لسبب غير معروف، قرر أستاذ عاطف أن يوقف تدريبنا على إحدى الأغنيات الدينية لتقديمها في حفل المدرسة، واستبدل أغنية «صوت بلادي» بها .

لم يكن هذا التغيير يعني الكثير بالنسبة لي، ففي الأغنيتين أقف ضمن كورال المدرسة الابتدائية. لم يعترض أحد على ترشيحات أستاذ عاطف سوى «جيهان» التي طلبت بشجاعة نادرة أن تغني مقطعًا منفردًا من الأغنية، لكن أستاذ الموسيقى لم يكن دبلوماسيًّا بالمرَّة، وقال لزميلتنا: «صوتك مش حلو»، عادت جيهان لتقف إلى جوارنا وهي تبكي بصمت، كنت أرى دموعها، وأحمد الله على أنني لا أمتلك شجاعتها. كنت مفتونًا بجملة تشعل خيالي كطفل، يرددها أحد الذين اختارهم أستاذ عاطف ليغنوا مقطعًا منفردًا، وكنت أتمنى أن أغنيها، كانت الجملة تقول: «وقت ما كان لسه العالم بيعيش تايه في الغابة.. مصر كانت دولة ولها راية فوق أعلى سحابة»، كانت هذه الجملة هي أول ما يربط بيني وبين البلد الذي أعيش فيه .

كنت أحب مشاهدة الفيديو الذي صوره المخرج حسين كمال للأغنية، كان الفيديو مشحونًا بلقطات موحية، لقطات تقول إن مستقبل هذا البلد واعد، ما بين مصانع، وعُمال بناء، ومعامل كمبيوتر، وطلاب جامعيين، وأطفال يرقصون في استعراض ما... ثم اختفت من على الشاشة لفترة، يُقال لأنها كانت محسوبة على السادات الذي رحل وجاء مكانه رئيس جديد، لكن الأغنية ظلت حيَّة، بدليل أن أستاذ عاطف اختارها ودرَّب تلاميذه عليها لتقديمها في حفل نهاية العام بعد رحيل السادات بعامين أو أكثر، لست متأكدًا بالضبط .

أذكر جيدًا أننا كنا، كمجموعة كورال، نقف في أحد أركان غرفة الموسيقى نتدرب على مقطع «رجالة وطول عمر ولادك يا بلدنا رجالة»، كان أستاذ عاطف يدرِّبنا على هذه الجملة، بينما يعزف على الطبلة فقط بحماس شديد، كانت الطبلة وسيلته لمساعدتنا على ضبط إيقاعنا الجماعي، كان يؤكد على أهمية مد الياء في آخر كلمة في الجزء الذي نغنيه: «والمصري سكته محروسة بقرآنه.. وإنجيييله»، أديناها بنجاح من أول مرَّة .

يوم الحفلة بدأت الأغنية، لكن حماس الحضور كان غائبًا، انتصفت الأغنية تقريبًا دون تشجيع حقيقي أو تفاعل من أي نوع، وقبل النقلة الإيقاعية التي كنا نرددها ككورال، ومع النغمة الراقصة التي تصاحب «رجالة وطول عمر ولادك يا بلدنا رجالة»، أشار لنا أستاذ عاطف أن نغنيها ونحن نصفق، وكان يشير لنا وكأنه يعزف على الطبلة، فقلناها بحماس وحيوية ونحن نصفق، طال الحماس جيهان فأطلقت زغرودة، هنا ضجت القاعة بالضحك، وشاركنا الجميع التصفيق بقوة، وسرت في المكان بهجة عارمة، فطلب منا أستاذ عاطف أن نعيدها أكثر من مرَّة، ففعلنا، وفي كل مرَّة كانت جيهان تعيد الزغرودة، وأذكر جيدًا أنها كانت أكثرنا سعادة .

ما بين نسختين من «جمعة الشوان »

(1)

اكتشفت أن الموعد البرامجي الوحيد الذي أحفظه جيدًا ـ بخلاف برنامج «توك شو» أو اثنين ـ هو موعد عرض الحلقة الجديدة من مسلسل «دموع في عيون وقحة» على «ماسبيرو زمان»، المسلسل موجود بالكامل على يوتيوب، ويمكن مشاهدته كاملًا في عدة ساعات خاصة، لكنني أفضل انتظار موعد العرض التلفزيوني الجديد باللهفة نفسها التي كنت أنتظر الحلقات بها طفلًا .

أتذكر جيدًا اللحظة التي ارتبطت فيها بهذا المسلسل، يوم أخرج الريس زكريا من درج مكتبه في مبنى المخابرات ساعة اليد التي اشتراها من جمعة الشوان في أثينا وأعادها له، رافضًا أن يأخذ ثمنها، قائلًا: «مش انت اللي دفعت تمن الساعة يا جمعة.. دي مصر ».

كانت تقريبًا المرَّة الأولى التي يرى فيها الواحد طفلًا اسم مصر مفعلًا بشكل درامي أكبر من تحية العلم، في سياق به لعبة السيناريو المفضلة لدينا جميعًا (أن تلقي بتفصيلة ما في وقت مبكر، ثم تعود إليها بعد أن ينساها الجميع). وقعت في غرام المسلسل بسهولة من بعدها، وبمرور الوقت كان الواحد يكتشف تفاصيل جديدة مع كل مرَّة يُعرض فيها المسلسل، موسيقى عمار الشريعي، سيناريو صالح مرسي، دون أن تخفت نظرة الإجلال لكل من يساهم في عمل وطني، بداية من صلاح قابيل، ونهاية بسيد حاتم عامل الشاي في مبنى المخابرات .

بعد سنوات طويلة من عرض المسلسل، كنت أقف في السوبر ماركت الذي يمتلكه جمعة الشوان الحقيقي في أحد شوارع فيصل الجانبية، كنت أتأمله وهو يجلس خلف ماكينة الكاشير، أدهشني الفارق بين البطل الذي ثبتت ملامحه في وعي الطفل وبين الشخصية الأصلية، لا شيء يجمعهما سوى بشرة سمراء، وبعد قليل أضيفت على البشرة السمراء خفة الظل، كنت أطلب منه حوارًا صحفيًّا .

(2)

في بيته كان يحكي كروائي محترف، قلت له: «يبدو أنك قد استفدت من عِشرة الكاتب الكبير صالح مرسي»، قال لي: «أحضرت المخابرات لي في البداية كاتبًا لأقص عليه ما حدث، جلست معه عدة أيام ثم طلبت تغييره، فأحضروا لي صالح مرسي، كان ابن بلد، تقع في غرامه بسهولة، لكنني لم أحب أنه حوَّل القصة إلى كتاب طرحه في السوق دون استئذاني، أقمت ضده دعوى قضائية، استمرت عدة سنوات ثم أُغلق الملف بوفاته ».

سألته: «ما الجهاز الذي استقدمته من هناك وتم اعتبار ذلك بطولة؟»، قال: «الموبايل الذي أصبح موجودًا في يد الجميع حاليًّا، حاول الموساد قبل ذلك أن يمدوا الجاسوسين «إبراهيم» و«انشراح» بجهاز مماثل، أدخلوا الجهاز وقاموا بدفنه في الكيلو 20 بطريق القاهرة السويس أسفل فنطاس ماء، لكن فيما يبدو أنهما أثناء الحفر لاستخراجه قاما بتحطيم جزء منه فأصبح لا يصلح للعمل، فاتفقوا معي على أن أضع الجهاز في «توستر» سأصطحبه معي إلى مصر، وأدخلته بسهولة، لكنني تسلمته بعد اختبار جهاز كشف الكذب، وهو لا يشبه كرسي الحلاق الذي يظهر في المسلسلات، فالحقيقة أنك تجلس عاريًا تمامًا، ويخرج من جسدك ما يقرب من 86 سلكًا متصلًا بعدد مماثل من الأجهزة، وأكثر من 36 جهاز تلفزيون، في حضور 8 أشخاص يوجهون لك الأسئلة، كان اختبارًا مرعبًا لا أعرف كيف مر ».

سألته عن نهاية الخدمة، فقال: «ظللت أعمل حتى يناير 1976، كان مطلوبًا مني في هذا اليوم معلومات عن طريق السويس، وفي الطريق صدمتني سيارة جيش وكدت أموت، وأصبت في مفصل القدم إصابة قوية ما زالت تؤثر عليَّ حتى يومنا هذا، بعدها طلبوا مني أن أفتتح سوبر ماركت لأُقدِّم تقارير عن حالة التموين، ثم توقفت تمامًا في نهاية عام 1979 ».

انتهى الحوار معه ونشرته على حلقات في «نصف الدنيا». اعتقدت أننا لن نتقابل مرَّة أخرى، وفي يوم كانت المجلة تجهز عددًا خاصًّا بمناسبة عيد ميلادها، وكانت الفكرة أن يُجري الصحفي حوارًا يجمع اثنين من المشاهير، اتصلت بجمعة الشوان فوافق، لكن موافقة الممثل علاء ولي الدين لم تكن سهلة أبدًا .

(3)

خاف علاء ولي الدين من الفكرة لأن جمعة الشوان اقترح أن يكون الحوار في شقة باب اللوق، تلك الشقة التي اشتراها خصيصًا ليرسل منها رسائله المعلوماتية إلى الموساد، خاف علاء ولي الدين: «يا ابني أحسن تكون متراقبة»، قلت له: «لقد أصبح العالم كله يعرف القصة يا علاء، لا تخف ».

تعطل بنا الأسانسير، وأصيب علاء بحالة ذعر، انتهت بظهور الشوان. جلسنا وقتًا طويلًا. كان علاء ولي الدين لديه فضول حقيقي ليعرف كواليس اصطياد الشوان من قِبل الموساد، وإن كانت أحداث المسلسل حقيقية، قال لنا الشوان : «المسلسل لم يُقدِّم سوى 7% من الأحداث، بقية الأحداث عجز فريق العمل عن تقديمها نظرًا لضعف الإمكانيات وقتها، بالإضافة لاعتبارات أمنية ومخابراتية ».

سأله علاء ولي الدين: «بعد أن شعرت بالشك فيما يحدث معك في أوروبا، كيف تصرَّفت عندما عدت على القاهرة؟»، قال الشوان: «بعد وصولي بيوم واحد قررت أن أذهب لمقابلة جمال عبد الناصر، ذهبت إلى كشك خشبي في ميدان التحرير مكتوب عليه «المباحث العامة»، وقابلت عميد شرطة، حاول أن يعرف أسباب طلبي فرفضت وامتنعت عن الكلام إلا أمام الرئيس، تعرضت للضرب المتواصل على مدى ثلاثة أيام، وعندما فشلوا في معرفة أي شيء، عرضوا الأمر على مدير مكتب عبد الناصر، وبعد محاورات كثيرة قابلت ناصر، دخلت فوقف وصافحني ثم طلب مني الجلوس وقال: «تشرب ليمون؟»، قلت له: «أشرب»، ثم قصصت عليه كل ما حدث، قال لي ناصر: «أنا والدي كان مدير مكتب البريد في السويس، وأنا أعرف أهل المدينة وأعرف أخلاقهم وجدعنتهم، وإنت هتعرف تفيد مصر بشجاعتك دي»، ثم طلب مني أن أتوجه إلى مبنى المخابرات ليقرروا الشكل المناسب للتصرف، ومن هناك بدأت الرحلة ».

طالت الجلسة، وعند الباب وبينما نتودع فوجئنا أن الشوان يعتقد أن علاء ولي الدين صحفي زميل ولا يعرف أنه ممثل، ضحك علاء من قلبه وقال للشوان: «أُمَّال بس عامل فيها جاسوس؟ ».

(4)

ما الذي كنت أحاول تقليده في الطفولة بعد متابعة المسلسل؟

جاكيت عادل إمام الجينز .

كان ملهمًا، وبحثت كثيرًا عما يشبهه، ولم يكن متوفرًا في مدينة بعيدة في الصعيد ما يشبهه، بعد فترة من الإلحاح، عثر والدي على مجرد قميص جينز، لكنه لسن أكبر، كان يبدو عليَّ مثل

الجلابية، لكن لا بأس، كنت أرتديه طول الوقت، وكنت أفتش عن الطريقة التي يمكن أن أصنع بها فوق وجنتي عاهة مستديمة مثل التي كانت على وجنة محمود الجندي طول المسلسل .

انتهى كل ذلك مع الطفولة، أما ما بقي معي حتى يومنا هذا فهو أنني لم أعد أشرب الشاي إلا كما كان يطلبه عادل إمام في المسلسل.. «خمسينة ».

طعام الأكابر

أثناء زيارة «عزبة البرج» في دمياط، لفتت نظري فوق مبنى شبه مهجور لافتة مصنع «إدفينا» لصناعة المعلبات والأطعمة المحفوظة، كانت شكوى مرشد الرحلة تتضمن امتعاضًا من أن يصبح هذا حال المصنع الذي كان بـ«معلقتين خضار في علبة» شريكًا في انتصار أكتوبر. وفي السويس كنا نتناول إفطارنا في مطعم فول بدا تاريخيًّا تحمل جدرانه صور مجندين قدامى. قال صديقي إن هذا المطعم كان أشبه بـ«ميز» الجنود أثناء حصار السويس، ثم أضاف أن نصيب كل عسكري أو مواطن كان رغيفًا واحدًا يوم السبت، وآخر يوم الثلاثاء. تذكرت المشهدين وأنا أجلس أحتضر جوعًا في انتظار طعام الغداء، بعد أن بذلت مجهودًا كبيرًا في ترتيب دولاب الملابس !

ظهر المشهدان في ذهني وفي الخلفية تساؤل عن «اللقمة» التي كانت تسند ظهور المقاتلين خلال معجزة الحرب، أفكر كيف كان طعامهم في هذه الشدة .

تمتلئ حكايات أبطال الحرب عن مغامراتهم مع العطش والجوع. يحكي أحدهم أنهم على شط القناة كانوا ينتظرون المد والجزر في منتصف الشهر لأن الماء يلقي إليهم بكميات من «الجندوفلي»، أكلوه متضررين في البداية (بالذات الجنود غير السواحلية)، ثم وقعوا في غرامه وكانوا يخزنونه أحيانًا. ويحكي أحدهم عن اختراعات تحلية ماء البحر بالغلي والتقطير، وكيف كان الجنود يخلعون فلنكات السكة الحديد لتوفير أخشاب تكفي للمهمة. ويحكي آخر عن قوالب «الفولية» تعيين الطوارئ نجمة اللحظات الصعبة. وهناك حكايات عن الاضطرار عند اشتداد الحصار إلى التهام الثعابين وبعض القوارض الجبلية. ويحكي أحدهم أنه في بعض الأوقات كانت الأوامر هي استهلاك الوجبة الواحدة على ثلاثة أيام، لكن يظل السؤال: كيف كانت الوجبة؟

كنت أفكر أن قرار العبور على هامش صيام المجندين، يدعم بشكل ما التعود على أي خلل وارد في مؤن الطعام، فلم يكن الوضع في أفضل حال على الجبهتين الداخلية والخارجية، كانت أسعار اللحوم قد ارتفعت لندرتها، فبدأت النساء من بني سويف حملة مقاطعة شعبية للحوم، ثم انتقلت للمحافظات الأخرى بنجاح كبير حتى هدأت الأمور، وعندما تم الانتصار كان الدعم الذي قدمته السودان لمصر هو 30 طنًّا من اللحوم، قبلها كانت الصين قد أسعفتنا بـ1000 طن من القمح.

كانت مصر تعاني من آثار النكسة، اعتمدنا على أنفسنا بشكل كبير، وأصبح جزء كبير من دعم مؤنة الجنود يقوم على مصنع «قها» بمنتجاته المعلبة، وكذلك مصنع «إدفينا» (الفول والبلوبيف والخضراوات)، ومخبوزات «بسكو مصر»، لكن المهمة لم تكن سهلة، فقد كان مهمًّا توفير القمح للاستهلاك ولمخزون استراتيجي أيضًا، وكان واردًا أن يفسر العدو استيراد القمح باستعداد مصر للحرب، فتم اللجوء لحيلة مخابراتية بتسريب أخبار عن الصوامع التي أغرقتها مياه الأمطار، وتم تحويل الأمر إلى فضيحة إعلامية تم تحت ستارها استيراد كميات من القمح. ومع ذلك يحكي الأبطال عن هذه المخبوزات التي سموها على الجبهة «البسكويت الخشابي»، تعبيرًا عن خشونة ملمسه ومذاقه، لكنهم لم يتمردوا عليها، وعند اشتداد الجوع يفتش الجنود بين الرمال عن عبوات قد تكون سقطت من أحدهم أثناء القتال. ويحكي أحدهم عن طبخة «الخضار بالبسكويت»، كان يجمع بالملعقة الدهون المتكونة فوق «وش» علبة الخضار كأنه يستخدم سمنًا للطبخ، ويضعها في حلة مليئة بالماء، ثم يفرك بداخلها البسكويت لكي «ينفش» في الماء، ثم يلقي بداخلها حبات الفول

مع الأرز مع الخضار، ويقول صاحب الوصفة «اللواء محسن علام» إن هذه الوجبة كانت مرادفًا للسعادة .

لم تكن هذه الطبخة الساخنة متاحة طول الوقت وللجميع، لكن الحصول عليها كان أشبه بمكافأة. يحكي اللواء عبد اللطيف مبروك أن الطعام الساخن كان يحتاج إلى مقطورات طهي، ولم يكن هذا متاحًا بوفرة أثناء الحرب، لذلك تم تحويل المتاح من هذه المقطورات إلى سلاح لرفع الحالة المعنوية للجنود قائلًا: «كانت هناك محاولات مستمرة للوصول في نهاية اليوم بأي منتج ساخن وطازج للجنود يعوضهم عن المعلبات، حتى ولو كوب من الشاي أو شوربة العدس أو بعض الخضراوات، وكانت تصنع فارقًا معنويًّا. فارق آخر كان يصنعه اقتحام والسيطرة على دشم العدو المليئة بالمفاجآت التموينية مثل الثلاجات التي تضم المعلبات التي تحتوي كل واحدة على دجاجة كاملة مع الشوربة والمكرونة، ومعلبات قطع اللحم المطبوخة بالصلصة، بخلاف المربات والعصائر ».

أثناء حصار السويس، والذي يعتبر انتصارًا عسكريًّا مدنيًّا، لولاه ما كانت معجزة 6 أكتوبر لتكتمل، كان الطعام والشراب معجزة حقيقية، بطلها شاب اسمه علاء الخولي كان قد انتقل للسويس مديرًا للتموين قبل فترة، ومع بداية الهجوم على السويس والحصار وجد نفسه مسؤولًا عن طعام خمسة عشر ألف جنديٍّ، ومثلهم من المدنيين، تحت قصف أحرق مخزن احتياطي الدقيق في المدينة، فقاد الناس لينقذوا 1400 جوال بعد احتراق ضعف عددهم واحترق معهم أيضًا 22 طن سكر ومثلهم أرز، كان قراره بتخفيض وزن الرغيف، وصرف واحد فقط يوم السبت وآخر يوم الثلاثاء لكل فرد، الطريف أن هذا العجز لم يمنع السوايسة من عمل كحك وغُريبة عيد الفطر وتوزيعها على الجنود لرفع معنوياتهم، مع الشاي الذي تم عمله في «حلل» كبيرة، وكانت هناك أزمة طاقة، لكن المخابز دارت بـ«ديزل» السيارات الحربية، وصرف الخولي أيضًا لكل فرد من عهدته وعلى مسؤوليته علبة خضار باللحم، وعلبة سردين، وباكو شاي، ونصف كيلو سكر، على أن يتم استهلاكها في 15 يومًا. وقتها عرف الجنود والسوايسة أطعمة لم تكن أساسية، أصبح الطرشي والفول السوداني والبصل والبلح مع الخبز وجبات رئيسية، وبعد عدة أسابيع اكتشف أن هناك ما يقرب من ألف رأس ماشية ملك لأحد تجار اللحوم في المدينة موجودة، ومخبأة في منطقة المجزر الآلي، فصدر قرار بتوزيعها على الجنود والمدنيين مجانًا، كيلو واحد بالعظم لكل 6 أفراد، وذاق المحاصرون اللحم لأول مرَّة وقتها. أما الماء فقد شح المخزون، وتنازل السوايسة عن حصتهم ليتم صرفها للجنود على الضفة الشرقية والمستشفيات والمخابز، وقرر السوايسة أن يحفروا بمساعدة ذاكرة المسنين الآبار القديمة التي كانت موجودة في المدينة .

هناك نظرية تبرر الحماقة بـ«الجوع والحرمان»، وتبرر التصرفات الطائشة بـ«أصله صايم»، كيف كان أكتوبر استثناء لهذه القاعدة؟ وهناك نظرية عسكرية تقول: «الجيوش تزحف إلى الانتصار على بطونها»، في تشديد على أهمية مؤنة الجندي في الحرب، لكن أكتوبر كان أيضًا استثناء، فقد كان الجوع مفتاح «التهام» العدو، وانظر كيف زحف أبطالنا؟

لقيمات صغيرة قوامها المواد الحافظة والمخبوزات الجافة وشوربة العدس الساخنة على سبيل رفع المعنويات، كانت وجبة الانتصار في أكتوبر، هي معجزة، كان طعامهم أقرب لطعام المتصوفة الذي يقرأ الواحد عنه في الكتب، ويقول المشايخ إن «الجوع يفتح على العبد»، كان هذا التقشف هو بوابة «الفتح»، فلا أحد ينكر أن ما قام به الجنود كان «كرامة ».

ثناء وسناء

(1)

ما بين «ثناء» بمعنى «شكر»، و«سناء» بمعنى «نور»، كانت حياتي تتشكل على كل المستويات، الإنسانية والمهنية، بين «ثناء عمر» أمي التي صارت بالوقت أستاذتي، و«سناء البيسي » أستاذتي التي صارت بالوقت أمي .

(2)

كانت أمي تحلم أن أكون «طبيبًا»، وأهدرت حلمها بكل استهتار، الطالب المتفوق الذي تاه عند مفترق الطرق. كانت الثانوية العامة مواكبة للحظة التدهور الذهني والمزاجي الذي يصيب المراهقين، كانت ثقة أمي في قدرتي على أن أتجاوزها عظيمة، لكنني خذلتها، وكنت أغلق على نفسي باب غرفتي والاسم «باذاكر»، ولكنني كنت أتنقل طوال الليل بين محطات الراديو، مخلصًا في الإنصات لأم كلثوم وبقية رفاق جيلها، أو في مطالعة الكتب والمجلات المخبأة أسفل مرتبة السرير. وكانت نتيجة آخر العام صدمة قاسية، شاهدت أمي وهي ترقد على إثرها في فراش المرض تبكي بالأيام، معتقدة أن ابنها الوحيد قد ضاع، لم أرسب، ولكنني خرجت بمجموع يؤهلني للالتحاق بنادي حملة الشهادات الرسمية التي يتم تعليقها في الصالونات .

كنت آية في البرود، لم أحزن أو أتأثر، لم أكن أعرف ما الذي أريد أن أكونه، تهربت من اختبارات الالتحاق بالكليات العسكرية، ويوم الكشف الطبي زوَّغت وكنت في الوقت نفسه في السينما أشاهد أحد أفلام يوسف شاهين الجديدة .

أضع نفسي اليوم مكان أمي، ما الذي يمكن أن أعمله لإنقاذ ابن فقد الشغف وبلا بوصلة ولا طموح من أي نوع يشغله، ولا يقلقه أي شعور بالذنب، بخلاف أنه لا يتكلم أصلًا ولا يغادر غرفته إلا للشجار مع بقية أفراد العائلة .

كانت خطة أمي ذكية للغاية، ومليئة بقدر من الشجاعة أحسدها عليه، تغاضت عن فكرة الدراسة والكليات، واختارت من كل طرق التفكير في المستقبل خطة وحيدة قائمة على بناء الإنسان. كان لا بد من تغيير الماء الذي يجري في حياة هذا الصبي، تغيير أقوى من دروس التربية المنزلية والمراجعات الأبوية. كانت تفكر في الخطة القديمة التي يُعلِّم بها الآباء أبناءهم العوم، وهي خطة بسيطة تقوم على فكرة «ارميه في البحر ».

دفعتني أمي إلى بحر العاصمة، في القاهرة سأعيد اكتشاف نفسي، هكذا كانت تفكر، وكانت معركتها الأساسية مع أبي، لن نخسر شيئًا، دعه يتحرك ويقع ويتعلم ثم يقف على قدميه ولا بأس إن وقع ثانية، فليخرج من ترف العائلة والمدينة الهادئة والمحبة المجانية التي تحيط به كابن وحيد وأكبر الأحفاد، دعه يتنقل بين شظف العيش في المدن الجامعية، والمواصلات العامة، وشبح الفلس، وطعام الشوارع، دعه يواجه الخطر بمفرده، يحل مشاكله بنفسه، يعمل في الإجازة الصيفية. جرب ولا تخجل. في إجازة السنة الأولى عملت مندوب مبيعات ألعاب أطفال، لا بأس. في إجازة السنة الثانية لم أجد مكانًا أقيم فيه سوى شقة أحد الأقارب على المحارة في أعماق شبرا الخيمة، هايل. في السنة الثالثة كانت الحاجة ملحة لتطوير مهارات قد أحتاجها مستقبلًا، كورسات اللغة والكمبيوتر، طيب أنا لا أنجح في كلية التجارة بتقديرات مشرفة، لا يهم. هل زرت معرض الكتاب؟ هل جربت السفر مع أصدقائك؟ عثرت على تدريب في أحد البنوك الكبيرة، ممتاز . لا

أحب عمل البنوك... لا يهم. انتهت الدراسة... هل أعود إلى الصعيد؟ لا، لديك عام كامل كان يفترض أن تقضيه في الجيش، ولا تجنيد لك، اعتبر هذا العام فترة تجنيدك التي لا بد أن تنتهي نهاية مشرفة، على الأقل اعرف ما الذي تريد أن تكونه .

أحب الكتابة، وكان أهم ما فعلته في العاصمة أن تعرفت على الوسط الثقافي بمقاهيه وندواته، نشرت القصائد لكنني خبأتها خوفًا من أن يُمثِّل هذا إحباطًا جديدًا لأهلي، صارحت أمي سرًّا بأنني لا أهتم بشيء سوى الفن والشعر والقراءة والكتابة، رفض أبي أن يكون هذا مستقبلي، وقفت أمي في صفي، فلنمنحه فرصة، تُراجع ما أكتبه، تُدقِّق وتُعلِّق وتُوجِّه، نفكر معًا فيما يمكن أن تعنيه كلمة «كاتب»، لم يكن واضحًا أنها شغلانة ذات مستقبل، فلتجرب، سألتُ: ومتى أعرف إن كانت التجربة نجحت؟ فكرت أمي كثيرًا ثم عثرت على الحل: امنح نفسك عامًا آخر إذا لم تمنحك الكتابة مفتاحًا لعالم واضح الملامح يُقدِّم لك دخلًا ثابتًا وطريقًا به قدر من الاستقرار، فلتجعلها هوايتك.

وبعد شهور من الكتابة والنشر وجدت أمي تسحبني من يدي حاملة بعض ما نشرت، وتطرق باب أحد أقاربها الذي كان يشغل منصبًا مهمًّا قديمًا في إحدى وكالات الأنباء، وضعتني وما كتبت أمامه، ثم سألته: «يكمل؟»، هز الرجل رأسه استحسانًا، خرجنا يومها أنا وأمي من عنده وسافرت وهي تقول: «أنا اطمنت عليك، شد حيلك»، يومها عُدت من محطة القطار إلى وسط البلد سيرًا على الأقدام، أفكر أنني لا أمتلك إلا خطة وحيدة: ألَّا أخذل هذه السيدة مرَّة أخرى .

رمت الأم «طوبتي» بيقين كان ملهمًا بالنسبة لي، وكلما استعجلني الأب على تقديم «أمارة» تبل الريق بخصوص الطريق الذي اخترته، كانت الأم تقول: «سيبه». أؤمن تمامًا أنه لولاها ما كنت لأمتلك الجرأة أو الشجاعة للاستمرار، وعندما كنت أفكر في خطوة للخلف وتغيير المسار والتنازل عن الحلم، كانت تقول: «خسارة»، فأعود من جديد .

بعد سنوات طويلة كنت أجلس على المنصة في أول حفل توقيع لأحد كتبي، كان الزحام شديدًا، وكانت هي تجلس في أحد الأركان تتابع ما يحدث، كنت أجلس قلقًا، ويخرج مني الكلام بصعوبة، ثمة شيء يؤرقني ويجعلني على غير طبيعتي، ولم يتغير كل هذا إلا عندما طلبت منها أن تجلس إلى جواري على المنصة، وافقت بصعوبة، بعدها كنت بحاجة إلى معجزة تجعلني أتوقف عن الكلام .

(3)

كنت أقف على باب الأستاذ محمد عبد الجواد، أمهر رئيس وكالة أنباء في تاريخ مصر، محملًا بشفاعة الأصول الصعيدية الواحدة التي تجمعنا، هيأت نفسي لأن أطلب وساطته في الالتحاق بمجلة «روز اليوسف» للتدريب، كانت وقتها أنجح مجلة في مصر، كنت أبحث عن نقلة في الطريق الذي سلكته، وقبل أن أطرق الباب قلت لنفسي لن أجد ما أفتش عنه هناك، أحلم بمن يعلمني ويساعدني على اكتشاف نفسي، لا أحلم أن أكون صحفيًّا يجمع الأخبار والانفرادات، أحلم أن أكون كاتبًا يكتشف الحياة من حوله ويكتبها ليدهش نفسه ومن يقرأ. وعندما جلست أمام مضيفي، وكانت لديه فكرة مسبقة عما أريده، سألني عن سبب اختياري لـ«روز اليوسف»، قلت له: «رجعت في كلامي، أريد أن أتدرب في «نصف الدنيا»»، ابتسم وقال لي نصًّا: «هذا اختيار عظيم لن تندم عليه أبدًا ».

ساعدني في أن أقابل سناء البيسي، لم تسألني إلا عن شيء واحد: «عندك إيه أفكار؟»، كنت مستعدًّا لهذا السؤال وأجبتها، فقالت: «اشتغل ووريني ».

كل مقابلاتي مع سناء البيسي في السنوات التالية كانت نسخة من المقابلة الأولى، سؤال واحد : «عندك إيه؟»، يعقبه سؤال: «هتعملها إزاي؟ طيب اشتغل ووريني». لم أدرس الصحافة، لكنني تعلَّمتها وتخرجت في مدرسة سناء البيسي، كان إيقاعها أسرع مني، ورغم فارق السنوات الكبير لصالحها إلا أنني كنت ألهث خلفها لأفي بما يجب أن أقدمه. كانت ماهرة في تكسير سقف الأفكار، وتكسير سقف طموحك فيما تفكر أن تُقدِّمه، الفكرة التي تعتقد أن «آخرها صفحتين » ، تكسرها أمامك لترى كيف أنها فكرة ملف صحفي كبير، الصورة يجب أن تكون بطلًا فيما تقدمه، لا تخف من المصادر، هم الذين بحاجة إليك أكثر من حاجتك إليهم، عبِّر عن نفسك، وانسَ قسوة رخام مؤسسة «الأهرام» وصقيع تكييفها . كثيرًا ما كنت أصحو من النوم على تلفونها تخبرني بفكرة خطرت على بالها أو حدث طارئ يحتاج لعمل انتحاري يجب أن يبدأ في هذه اللحظة. تقسو عليك إن شعرت أنك تدخر جهدًا. تقصيك بقسوة حتى تفيق. كانت تؤدب مهنيًّا كما يليق بامرأة تنتمي لبرج الأسد استهلكت في حب المهنة قلبين. كانت صيحتها الشهيرة «دي مجلة أمي...» كفيلة بإنهاء أي نقاش. ما تراه عقابًا ظالمًا ستعرف بالوقت أنه كان «درسًا خصوصيًّا» تستحضره على مهل، وتستطعمه فيما بعد، وتشكر الظروف التي جعلتك تعمل بالقرب من هذه السيدة .

لم تكن تنحاز إلا للموهبة، تجامل أحيانًا ولكن ليس على حساب ما تُقدِّمه المجلة، تغلق عليك باب مكتبها لتسلخك دون أن تفقد ابتسامتها. لا تعرف ما الذي يجب أن تفعله في لحظات «التقطيم المهني» التي تزنقك فيها، هل تضحك، أم تضع وجهك في الأرض و«تضحك لجوه»؟ تعاقب بالعمل، وتكافئ بالعمل، أن يتم حرمانك من النشر لفترة، كان هذا أقسى ما يمكن للواحد أن يواجهه في هذه الفترة، أو أن تسألك: «بتحلم تعمل إيه؟»، فتعينك على تحقيق الحلم. أريد أن أُهرِّب الأسئلة لأحد المساجين المهمين ثم أنشر إجاباته في حوار، يلَّا، أحلم أن أكتشف بلدًا مجهولًا مثل إيران، طيِّب جهز نفسك للسفر. لكن أن تختفي وتتراجع عن العمل فستكون هناك مفاجآت عظيمة في انتظارك، عدت في مرَّة بعد غياب بموضوع صحفي، طلبته وطلبتني شخصيًّا ثم كتبت لي عليه: «هذا موضوع هزيل لا يليق بالنشر في مجلة نصف الدنيا»، ثم طلبت مني أن أحتفظ بهذا الموضوع وتعليقها عليه في مكان يسمح لي أن أراه في «الروحة والجاية»، وضعته أسفل زجاج مكتبي، وبعدها عدت بسلسلة تحقيقات كانت تمنح كل حلقة فيها أكبر عدد ممكن من صفحات المجلة. كل يوم في حضرة هذه السيدة هو يوم دراسي في مدرسة المهنة وأصولها وأخلاقها، في لحظات النجابة أفخر أنني كنت تلميذًا فيها، وفي لحظات الخيابة المهنية أقول لنفسي: أكيد كنت غايب في اليوم ده .

(4)

«ثناء» و«سناء ».

أؤمن تمامًا أنهما «الخرسانة» التي تجعل حياتي متماسكة حتى هذه اللحظة، اللوحة الرخامية الموجودة في بهو مبنى حياتي تحمل اسميهما كمسؤولتين عن التصميم والبناء، أعتبر نفسي أحد المباني المحظوظة في المربع الذي أقف فيه بين مبانٍ كثيرة متناثرة حولي .

الحكيم والدليل والرجل الطيب

أعمل كاتبًا محترفًا، محترفًا بمعنى أنها هي مصدر دخلي الوحيد، لكنني لست محترفًا بمعنى الالتزام بمواعيد تسليم المقال مثلًا، أو الحضور إلى العمل يوميًّا، أو التقيد بخطة عمل واضحة، وهذه مسائل فرعية، لكن الأصل في الموضوع هو السؤال: كيف وصلت إلى هنا؟

الاستقرار في عالم هذه المهنة كان بحاجة إلى ثلاثة أشخاص :

واحد يقضي على حيرة اتخاذ القرار .

واحد يدلك على طريقة تنفيذه .

واحد يقنعك أنت والناس من حولك أن القرار كان صحيحًا .

(1)

الحكيم

أكتب الشِّعر والقصة على هامش الدراسة الجامعية، لا رغبة لديَّ في مواصلة الدراسة، التجارة لا تليق بي، في السنة الرابعة بدأت أتساءل عن مصيري المتوقع، كمحاسب مهم في بنك أجنبي أو شركة عالمية، يصحو في السابعة ويغادر مكتبه في الرابعة، أنا مهدد بالفصل قبل أن أستلم العمل، إن كانت هذه هي أول شروط الوظيفة .

هل أترك البلد؟ لن يحدث، وكذلك لن أعود إلى مدينتي في جنوب مصر، ومن المؤكد أنني لن أكون أستاذًا في جامعة لم أخترها ولا أحبها، وأنهيت سنواتها بالحظ وبالصدف .

أسأل، فيرد الكبار عليَّ بسؤال: «هل تعرف ما الذي تجيده بالضبط؟». لم أكن أعرف بالفعل، ولم أعتبر أن اهتمامي بالكتابة والقراءة يمكن اعتباره شيئًا أجيده، هي هواية في النهاية، يأتي ذكرها عرضًا وعلى خجل أمام المقربين، هواية أفادتني كثيرًا في امتحانات المواد النظرية في كليتي، يكفي أن أعرف رأس الموضوع، وإذا ما صادفني في الامتحان أستطيع أن أكتب فيه خمس صفحات دون كلل أو ملل، لكن الحقيقة أنني لا أجيد شيئًا سوى الكسل والسهر في رفقة الأصدقاء، سواء كانوا من ورق أو من لحم ودم، والتسكُّع في الشوارع، والتنقل في اليوم الواحد بين أكثر من سينما بداية من العاشرة صباحًا حتى تنفد النقود، والتفتيش عن مؤلفي الأغنيات التي أحبها، وإلقاء قصائد حداد وجاهين للفت أنظار جميلات الكلية (بالمناسبة، كانت خطة فاشلة)، والتنطيط من ندوة ثقافية إلى أخرى في وسط البلد، والتفتيش في مكتبات الأزبكية عن شيء لا أعرفه بالضبط، كل هذا في إطار من الفضول لا يهدأ، مبعثه شهوة لمعرفة كل شيء يحدث في العالم أو لا يحدث .

أدخل محل الحلاقة أنتظر دوري، في الركن صف مجلات حديثة ملونة، في نهاية الصف مجلة يبدو أنها قديمة، سحبتها وكنت محقًّا، عدد من مجلة انتهت إكلينيكيًّا قبل هذه المصادفة بعشرين عامًا على الأقل، مجلة اسمها «أكتوبر»، بها مقال لكاتب رحل قبل هذه المصادفة بعدة أعوام، بخلاف أن العدد نفسه بتاريخ قديم .

د. حسين مؤنس .

بالرغم من كوني مهتمًّا بالقراءة إلا أنها كانت المرَّة الأولى التي يصادفني فيها مقال له .

طيب، ما الذي دفعك للتوغل في مقال لكاتب يبدو مجهولًا بالنسبة لك؟

كان المقال الذي ما زلت أذكره حتى اليوم يقول :

«إذا لم تكن قد أعددت نفسك لحرفة معينة تحبها، وأجهدت نفسك في الاستعداد لها، كالطب والهندسة، وترى في نفسك موهبة وطموحًا وحبًّا للعمل، فأنت في الغالب تحب أن تكون صحفيًّا، لأن الصحافة باب واسع يستطيع الإنسان من خلاله أن يصل إلى أعلى المراتب، وأن تستخدم فيه كل مواهبك التي تشبه هذه المهنة، وتحصل من خلالها على سلطان عظيم في بلدك، بشرط أن تكون أمينًا صادقًا وطنيًّا وإنسانًا. وسأحدثك هنا عن جوانب من تجربتي الشخصية، وهي تجربة طويلة وعسيرة، عندما دخلت من باب الصحافة الملكية، وبذلت جهدًا بالغًا في العمل الصحفي إلى اليوم، وأعتقد أنني سعيد بما فعلت، وإن كنت لا أنصح الشباب بأن يسيروا في هذا الطريق إلا لو كان يتفق مع طبعه ومواهبه ».

فشل الحلَّاق أن يُقدِّم لي تفسيرًا لوجود هذا العدد القديم من مجلة منسية في محله، فشل وغلَّفت فشله هالة من الدهشة .

د. حسين مؤنس بالأساس من أهم كُتاب التاريخ والحضارة الإسلامية، ويندر أن تصادف مقالات من هذه النوعية بين أعماله .

أما أنا، فقد أقلعت تمامًا عن زيارة محلات الحلاقة بعد أن بدأ الصلع يعرف طريقه إلى رأسي .

لكن هكذا تسير الأمور.. وهكذا بدأت القصة .

كان مقال د. حسين بمثابة طبطبة رجل حكيم على كتف شاب لا يعرف أي طريق يجب عليه أن يسلكه. أشار الكاتب بيده التي زينتها تجاعيد سنوات عمره السبعين باتجاه بوابة الطريق، لكن الطريق الذي ما زال مجهولًا بالنسبة لي، كان بحاجة إلى «دليل» يأخذ بيدك حتى تألف قدماك أسفلت المهنة الوعر .

(2)

الدليل

لا يعرف أحد الطريقة التي تتجمع بها الأرواح المتشابهة عند نقطة واحدة، يعني دفعة جديدة يتعدى عددها ألفي طالب لا يعرفون بعضهم البعض، يتجمعون في فناء كلية، بخليط من الخجل والقلق والشعور بغربة ما، ما هو السيناريو الذي تحولت الآلاف بنهايته إلى مجموعات متشابهة، لكل واحد قصة، وقصتي من أرضية «العصبية»، القادمون من جنوب البلاد يميزون بعضهم بسهولة في هذه الأجواء بفضل «اللكنة»، لهجة البلاد البعيدة تتحول إلى خيط مسبحة، بينما الشعور بالغربة يلم هذه الحبات المتناثرة في عقد واحد، لحسن الحظ أن هذه المسبحة كانت تضم المهتمين بالقصة والشعر، صرنا كتلة، سرعان ما كبرت لتضم من هم أكبر سنًّا، ثم ضمت المهتمين أبناء العاصمة الذين يعرفون الطريق لمقابلة الأسماء الكبيرة التي كنا نتغنى بأعمالها ورؤيتها رؤية العين .

سيد حجاب سيُلقي الشعر اليوم في حزب التجمع .

محمود درويش سيزور معرض الكتاب هذا العام .

أحمد فؤاد نجم يستقبل المحبين في سطوح بيته في المقطم .

خيري شلبي، وإبراهيم أصلان، يتواجدان بصفة منتظمة في مقهى «ريش ».

كانت، ولا زالت، أسماء لها رهبة، وكانت فكرة الالتقاء بهم وجهًا لوجه ساحرة تطيِّر النوم وتضخ الأدرينالين في شتى مناحي الجسم، وكانت الطاقة تليق بكائنات ضخمة منقرضة بحيث ينتقل الواحد من شمال العاصمة إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها في أقل من أربع وعشرين ساعة،

طمعًا في أن يصافح أحد هذه الأسماء، أو على أقل تقدير أن يلتقي بمحبين آخرين مهتمين بالكتابة ويشقون طريقهم، فبدأت الدائرة تتسع، وبدأت الندوات والتجمعات الثقافية تصبح قوام تفكير الواحد في برنامجه اليومي، وما دون ذلك كان يأتي على الهامش .

كانت كل تلك المشاوير تبدأ وتنتهي من نقطة واحدة، «مقهى زهرة البستان»، هناك كانت نقطة الانطلاق باتجاه مشاوير من هذا النوع، وهناك كانت نقطة التجمع إذا ما ضعنا من بعضنا البعض خلال اليوم، وهناك أيضًا كان اليوم يضيع في الانتقال من منضدة إلى أخرى إذا لم يكن لدينا ما نفعله. في البداية كان الواحد يراقب من بعيد سكان هذا المقهى من الكُتاب الذين قطعوا مسافة بالفعل على طريق الأدب، ويراقب تصرفاته حتى لا يبدو في نظرهم شخصًا متطفلًا أو مزعجًا، وبمرور الوقت كانت الحواجز تذوب، وكانت الترابيزات تقترب من بعضها أكثر، حتى أصبح الواحد صاحب مكان وليس ضيفًا، إلى أن أصبح رقم تلفون المقهى هو رقم تلفوني الشخصي .

اللكنة الصعيدية كانت تفصيلة في السيناريو قادت الواحد إلى منصة إلقاء الشعر في أماكن مختلفة، وإلى مقعد شبه ثابت في «زهرة البستان ».

كان إبراهيم داود أحد أهم رواد «زهرة البستان». شاعر كبير، له طعم لم يخطئه الواحد يومًا، كان بشوشًا بما يكفي لأن يكون صاحب الخطوة الأولى في التعرف على وجوه جديدة تجلس في أي ركن من أركان المقهى منزوية صامتة، وكان كريمًا بما يكفي لأن يوفر عليك حرج عرض ما تجيده، بأن يبادرك هو بالسؤال: «بتكتب؟»، وكان مغامرًا بما يكفي لأن يعرض على الواحد أن «ما تيجي تحط إيدك معانا في الدستور؟ ».

كانت صحيفة «الدستور» القديمة انقلابًا في عالم الصحافة، وحديث أهل المهنة وغيرهم، وكان داود شريكًا في التجربة، وذات ليلة كنت أستعد لمغادرة المقهى وحيدًا بعد الحادية عشرة مساء، حيث لم يظهر أحد من الأصدقاء في هذا اليوم، صافحته وسألني عن وجهتي، وكان باديًا أنني لا أمتلك واحدة، فطلب مني أن أرافقه الطريق إلى مقر «الدستور» الذي يبعد عشر دقائق: «تعال أعرفك على الناس، ولو الجو عجبك اشتغل معانا ».

كانت عشر دقائق للذكرى، قطعناها في نصف ساعة. داود يمتلك من الحكايات ما يجعلك لا تتعب من قطع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية سيرًا على الأقدام، كان كالساحر في حكايات ألف ليلة، يحفظ كل نقطة في وسط المدينة مر بها شخص عظيم ليأكل أو ليشرب أو ليتشاجر أو ليحب أو للاقتراض، (حجازي الرسام، يحيى الطاهر عبد الله، أمل دنقل، نجيب محفوظ...)، لا أتذكر من الحكايات سوى أنني وضعت قدميَّ في عالم لم أخرج منه حتى يومنا هذا .

كان مقر «الدستور» يخلو من العاملين فيه إلا من إبراهيم عيسى ود. ياسر ثابت وعامل البوفيه، حصل التعارف بصيغة فلان الشاعر، كان باديًا على عيسى أنه من غير المتحمسين لطلة الشعراء، بالذات الجُدد الذين يكتبون قصيدة غريبة اسمها «قصيدة النثر»، سألني عن خبرة ما في الشغلانة، فأجبت بالنفي العظيم، خفف داود رتابة المقابلة بـ«هيلاقي له سكة»، ثم ختم المداخلة بقوله الشهير: «الله كريم ».

كان الله كريمًا بأن أرسل لي من يلتقطني من مقهى ما في وقت متأخر ليعبر بي بوابة الدخول بسهولة لا ترد في بال عمالقة التفاؤل، ولولا حسين مؤنس لكنت اعتذرت لداود عن مرافقته في مشوار لا يقع في دائرة اهتماماتي. أنا الآن على الطريق، وعلى الواحد أن يثبت نفسه ويؤكد حضوره، ولكن الأمر لم يكن يسيرًا، أكثر من ثلاثة أشهر مرت دون أن يحدث شيء أهم من

مراقبة الزملاء وشرب الشاي ومحاولة التقاط أول خيط في المهنة، من قسم التحقيقات إلى الفن إلى الترجمة دون أن أُقدِّم خبرًا واحدًا أو حتى مشاركة عابرة في تحقيق يعمل فيه كثيرون، فشل تام مطبق. قررت أن أقدم لنفسي مهلة أسبوع، فإذا لم أرَ اسمي منشورًا في هذه الجريدة، فعلى الواحد أن يحترم نفسه ويُغلق هذه الصفحة من حياته إلى الأبد منعًا لضياع المزيد من الوقت .

قبل نهاية الأسبوع بيوم ظهر الرجل الطيب .

(3)

الرجل الطيب

بعد أن استقر الدكتور كمال الجنزوري في مقعده كرئيس لحكومة مصر في نهاية النصف الثاني من التسعينيات، بدأ يلتفت إلى أحزاب المعارضة، وقرر أن يلتقي بها، وكان الاجتماع الذي لم يخرج منه أحد بأخبار مهمة أو مفيدة، كعادة الاجتماعات الرسمية، وصدر بيان صحفي قال إن كل شيء تمام وفي مكانه بالضبط، ولا شيء سوى الحب بين الحكومة والمعارضة، ولا داعي لأي محاولة للصيد في الماء العكر .

كانت جريدة «الدستور» تجربة مهنية قائمة على تجاهل البيانات الرسمية دائمًا، والبحث عن الكواليس، عما سبق إصدار البيان الرسمي، وعن الأشياء التي لم يقلها، كان هذا سر نجاح «الدستور»، وكان هذا سر عذاب العاملين بها، فالجهد المطلوب مضاعف، والتحدي ليس من النوع الشائع في الصحف التي تتلقى الأخبار والتصريحات بالفاكس أو عبر مندوبيها في الوزارات أو الحكومة .

كان رئيس قسم التحقيقات وقتها الأستاذ حمدي رزق: «من يأتيني بكواليس اجتماع رئيس الحكومة مع أحزاب المعارضة؟». خاض من هم أكثر حرفة وأقدم مهنيًّا مني المغامرة دون فائدة، هاتفوا وطاردوا كل رؤساء أحزاب المعارضة وقتها («خالد محيي الدين» حزب التجمع، «إبراهيم شكري» حزب العمل، «يس سراج الدين» حزب الوفد، «رجب حميدة» وكيل حزب الأحرار، «محمد عبد العال » رئيس حزب العدالة)، ولكن رجع كل واحد منهم بخُفي حنين .

لم أكن وقتها من المهتمين بالسياسة، وكنت أبحث عن الفرصة في بقية أقسام الجريدة، لكن في الطريق إلى البيت سرحت عبر شباك الميكروباص، وغرقت في أحلام اليقظة، متخيلًا نفسي الصحفي النادر الذي اخترق الحواجز كلها على طريقة عبد المنعم إبراهيم في «سر طاقية الإخفاء»، لآتي بما لم يأتِ به الأوائل في جداول المشتغلين في نقابة الصحفيين. توقف الميكروباص عند أول فيصل، وركب رجل عجوز يرتدي طربوشًا كان مثار سخرية الركاب حتى نزلت أنا بعد محطتين، لكن الطربوش كان علامة، هل فكر أحد أن يبحث عن الكواليس لدى «أحمد الصباحي» رئيس حزب الأمة صاحب أشهر طربوش في مصر؟

الصباحي الذي بدأ حياته موظفًا في هيئة النقل العام، ثم تفرغ للعمل السياسي وقدَّمه مخلوطًا بأمور أخرى من نوعية قراءة الكف والطالع، والاستشفاء بالقرآن الكريم في مكتبه بمقر الحزب، هذا الرجل لم يتعامل معه أحد بجدية يومًا ما، ولم يرد في بال أحد من الزملاء أن يسأله عن كواليس الاجتماع، تأكدت أولًا من أنه كان موجودًا، ثم قررت أن أتعامل معه بجدية تامة، بحثت عن رقم تلفونه ثم هاتفته .

لا السياسة مجالي، ولا الرجل صديق لي، ولم أكن مهتمًّا بخوض منافسة من ذلك النوع، لكن الأمور جرت على موجة المقادير. هاتفته وقدَّمت له نفسي، ثم سألته على استحياء عن الاجتماع

الذي حضره صباح اليوم، كنت أنتظر على أقصى تقدير يعني جملةً جديدة تصلح كخبر نميمة في رأس صفحة داخلية في الجريدة، لكن الرجل الذي لم يسأله أحد عن الاجتماع كان متشوقًا لأن يتكلم عنه باستفاضة .

حكى لي الرجل عن الدعوة التي لم يتم توجيهها لرئيس حزب العمل إبراهيم شكري، وأنه هو الوحيد الذي اعترض على هذا الإقصاء، بينما شعر بقية رؤساء أحزاب المعارضة بالرضا عن قرار رئيس الحكومة. حكى لي كيف أن الاجتماع كان «هِلهلي»، بدون ورقة عمل أو جدول أعمال، فكانت النتيجة أن الجميع، حكومة ومعارضة، قالوا أي كلام عن أشياء غير مهمة، وكيف أنه أراد أن يخرج بفائدة من الاجتماع، فأثار الكلام حول قرار الحكومة بتخفيض دعمها لأحزاب المعارضة، «هل من تفاصيل يا حاج أحمد؟»، قال الحاج أحمد: «تُقدِّم الحكومة لكل حزب معارضة 100 ألف جنيه، فجأة قررت أن تخفضها للنصف، وتُقدِّم لكل حزب عشرين تأشيرة حج مجانية خفضتها أيضًا!»، وقال: «الجنزوري لم يستطع أن يُعلِّق على الأمر، وكأن القرار قد أملي عليه، كلامي أثار شهية يس سراج الدين، فارتجل حوارًا عن مشكلة قانون المالك والمستأجر، لكن الجنزوري قال له: «الكلام ده تقوله في مجلس الشعب »».

هذا ما أذكره الآن بعد حوالي خمسة عشر عامًا من كلام الحاج أحمد الصباحي في مكالمة استمرت ساعتين، عرفت فيها كل شيء، بما في ذلك عصير البرتقال الذي قدَّمه رئيس الحكومة لضيوفه .

كتبت ما عرفته، ولم أنم ليلتي حتى توجهت إلى الجريدة في اليوم التالي، عرضت ما كتبته على رئيس قسم التحقيقات، هو أيضًا لم يأخذ ما كتبته بجدية لأول وهلة، تصادف أن مر إبراهيم عيسى، قرأ ما كتبته باهتمام ثم طلب مني أن أهاتف الصباحي أمامه، لأراجع معه ما كتبته، هاتفته، كان عيسى يتوقع أن ينفي الصباحي ما قاله، لكن الصباحي زادني من الشعر بيتًا، وأضاف إلى معلوماتي ما نسي أن يخبرني به في الليلة الماضية .

بعدها بيومين كانت الجريدة في السوق، وكان التقرير الذي كتبته منشورًا في الصفحة الأولى، اشتريت الجريدة، وكنت كل دقيقة أنظر إلى اسمي المكتوب في صدر الجريدة تحت تقرير كان افتتاحية للعدد، كنت أسأل نفسي إن كان ما حدث يعني شيئًا. صدرت الجريدة في آخر يوم في المهلة التي أعطيتها لنفسي، ولم يكن اسمي فوق خبر عابر في صفحة داخلية، لكنه كان مانشيت الجريدة، كانت العلامة أقوى من القدرة على تجاهلها، وكانت الخطوة الأولى ناجحة بمعاونة الرجل الطيب، هذا الرجل الذي لولاه لكنت الآن في مكان آخر .

القبض

خرجت من غرفة المحاسب محبطًا .

لم يصل «القبض» بعد .

من اللحظات المربكة في حياة الواحد لحظة «تأخر القبض»، أنت تعرف أن لك «فلوس» في مكان ما رتبت عليها خطتك، لكنها فعليًا غير موجودة، مما يحول بينك وبين ترجمة خطتك لواقع، شيء أشبه بالحب من طرف واحد، الموضوع يتجاوز يقينك أن الأرزاق على الله، فقد أرسل الله لك رزقك، لكن جهة العمل قررت أن تختبر إيمانك .

أحاول على سبيل الطبطبة أن أضع يدي على الجانب المشرق في الموضوع، فالواحد يستغل فترة التأخير في إعادة حساباته. يفكر كيف يتفادى هذه الزنقة مستقبلًا. يضع خططًا بديلة في ذهنه، ويعيد تستيف التزاماته. يتأمل متى كان سفيهًا خلال الشهر الماضي فورَّط نفسه في مصروفات «فانتاظية» يمكن الاستغناء عنها، ويسترجع كل مرَّة تعرض فيها لما يشبه «النصب» فيتخذ قرارات بتغيير السوبر ماركت مثلًا، مع شبه قرار بأن يتم شراء طلبات الشهر كلها مرَّة واحدة من محل جملة. يتذكر الواحد لمبة باب الشقة التي فوجئ صباحًا أنها «مولعة» من ليلة إمبارح، وخضة اكتشاف أنه كان شغال ليلة أمس على «الثري جي» وليس «الواي فاي»، وأن التعبير عن الحب لا يعني دائمًا دعوة للعشاء في مطعم «السوشي» السفاح، بغض النظر عن كون الحبيبة تبدو ساحرة في عيونك وهي تلتهم الطحالب المسلوقة. يفكر جديًّا في إجراءات توصيل الغاز الطبيعي للتخلص من فاتورة سخان الكهرباء المزعجة. يتأمل الواحد عدم وجود تناسق بين حجم مدخراته وحجم «الشقا» الذي يخوضه حتى هذه اللحظة. يطمئن نفسه قليلًا بمحاولة حصر ما أنجزه وما يمتلكه بالفعل ويفرح به، لأنه ليس قليلًا لكنها لحظة سرعان ما تذوب عندما تطل صورة شخص آخر أنجز من خلال مكانك نفسه ما يكشف عن شطارته وخيبة ما في أدائك. يتذكر الواحد نقلات الأسعار الغاشمة. يفكر الواحد هل هو سوء حظ أن تكون أجمل أيام عمره في الفترة التي يطالبك فيها البعض بأن تفرح بالطرق الجديدة، وألا تُدقِّق في موضوع أسعار الوقود الذي ستحتاج إليه لقطع هذه الطرق. يتذكر الواحد في انتظار المرتب معجزة أن المرتب زاد ولكن قيمته قلت، ويفتتح ملفًّا في مخه يرتب فيه أوراقه تخطيطًا لفرصة عمل ربما تكون أفضل، وتليق بمهاراته التي يتعامل معها مكان العمل باستهتار. يردد الواحد بينه وبين نفسه الكثير من جملة «في المرَّة الجاية إن شاء الله»، في الشراء والبيع والمصاريف والادخار وتقييم الأجر الذي تستحقه، خطط بارعة تشبه جدول المذاكرة الذي لا يعمله الواحد إلا لتنظيم القلق .

ثم تأتي اللحظة المبهجة، فينهار كل هذا سريعًا، تكافئ نفسك أن «المرتب نزل»، وتبدأ رحلة «الفرتكة»، التي تشبه مباريات الدوري المصري، تبدأ سريعة مشتعلة، ثم يهدأ الإيقاع، وتنقلب الرغبة في الفوز إلى الرغبة في عدم الهزيمة والخروج بتعادل مُرضٍ يحفظ ماء الوجه، ينقطع نَفَسك وأنت تكافح في انتظار صفارة الحكم، ثم يفاجئك بدقائق طويلة وقت ضائع «ما كنتش عامل حسابه»، وقت عصيب يمر طويلًا، بالضبط مثل فترة انتظار القبض .

القدَّاحة

سقطت من يدي القدَّاحة على الأرض فانحنيتُ لألتقطها، قبل أن ألمس الأرض كنت أفكر إن كانت القدَّاحة تحب هذا الاسم بالفعل، أم أنها تفضل أن أناديها «الولاعة»؟ سقط السؤال أرضًا إلى جوار القدَّاحة، وكأنه حجر كان يسد ثغرة ما في المخ، فأخذت الأفكار تتسرسب وأنا غير قادر على أن أوقفها .

كان فريد الأطرش في الراديو يقول: «الحب من غير أمل.. أسمى معاني الغرام». عاش فريد الأطرش حياته وحيدًا، أراه كان يريد أن يجر ـ بهذا السطر ـ أقدامنا إلى مأساته، الحب من غير أمل أسمى معاني العذاب الأنيق، أي شيء تفعله بلا أمل هو «حملٌ خارج الرحم»، أو كما تقول الحكمة الإنجليزية: «إن الشخص الذي لا يمتلك ما يفخر به سوى ماضيه هو نسخة من البطاطس التي يوجد الجزء المهم منها تحت الأرض ».

تقول حكمة أخرى إن التنفس دليل على حياة طبيعية عادية، لكن الحياة غير العادية متعلقة باللحظات التي لم تكن قادرًا فيها على التنفس، أشعر الآن بينما الأفكار تتسارع أمام القدَّاحة بمشكلة في التنفس .

لا شيء يثير جنوني قدر السمك في مقطف البائع، بالذات السمك الذي ما زال يتحرك، عمَّ يفتش؟ ولماذا لا يغلق عينيه ويرتاح؟ تذكرت حكمة هندية تقول: «إن السمك مرَّ في الحياة ومات قبل أن يفهم كيف تعيش العصافير»، أنظر إلى هذه الجملة وأرى فيها بلاغة عظيمة غير مفيدة، هناك الكثير من الكُتَّاب قد أفنوا حياتهم في الكتابة الجميلة عما لا يفيد .

ما الذي جعل القدَّاحة تستقر في يدي، الوقت متأخر ولا دخان في البيت؟ ما الذي كنت أخطط لإشعاله؟ ابتسمت لأنني لم أجد إجابة، لست شخصًا كئيبًا أو حسَّاسًا، أتفادى المصير الذي تتحدث عنه الحكمة الإنجليزية التي تقول: «إن الحياة كوميدية بالنسبة لشخص خيالي، ومأساوية بالنسبة لشخص حسَّاس»، لكن انتظر ! لا شيء يفتح باب الخيال سوى مأساة تعيد ترتيب فصوص المخ، تبًّا للحكم والأقوال المأثورة التي يؤمن بها الواحد لأنها تحمل جنسية أجنبية، لماذا أثق في الخواجة إلى هذه الدرجة؟

يقول الحكيم الخواجة: «إن الزواج لا يربطك بامرأة واحدة، لكنه يحررك من نساء كثيرات»، الزواج لا يحرر أحدًا يا خواجة، نحن هنا نؤمن أن الزواج مفتاح الاستقرار، الاستقرار عبودية، إذا ما لمسته تعيش أسيرًا له، وتُقدِّم كل ما تقدر عليه من تنازلات حتى لا تخسره، أفكر هل ستقرأ زوجتي أفكاري؟ وماله؟ أقول لنفسي: لا علاقة بين رأيي في الزواج ورأيي في زوجتي .

يخرب بيت أم الولاعة، لقد جعلتني أتحدث إلى نفسي كثيرًا، هناك حكمة أمريكية تقول: «إن الواحد يتحدث إلى نفسه لأن نفسه هي التي تُقدِّم له الإجابات التي ترضيه»، قالها الحكيم الخواجة معتقدًا أنه وصل إلى الحكمة، نفسك تلك التي ترضيك إجاباتها هي أكثر ما يعيق تقدمك في الحياة، «الواحد علشان يعرف يعيش لازم يموت نفسه»، هكذا أؤمن أنا شخصيًّا، وربما أكون غبيًّا .

يقول «أينشتاين»: «هناك حدود للذكاء، لكن الغباء لا حدود له»، طيب هل لهذه الأفكار المتسارعة حدود ستقف عندها؟ لماذا يبدو المشوار بعيدًا؟ ولماذا لا أنسى أمر القدَّاحة وأفرد ظهري وأعود طبيعيًّا أفكر في أمور... عفوًا... أو لا أفكر أصلًا؟

أكثر ما يحتاج إلى اختراع الفرامل هو العقل، فقدت السيطرة تمامًا، تذكرت مقولة لكاتب مجهول تطلب ممن يفشل في إصلاح الفرامل أن يتأكد من صلاحية «الكلاكس»، الحب من غير فرامل أسمى معاني الغرام، هكذا أصبح للجملة معنى .

يقول «مارك توين»: «إن الإنسان بحاجة لأن يتعجَّل في تعلُّم الصبر»، الصبر مفيد للحب، أؤمن تمامًا أن الله مع الصابرين في الحب .

أشعر بالإرهاق، ولا أعرف هل من الصواب أن أكمل المشوار باتجاه الولاعة (القدَّاحة اسم بائس فعلًا) أو أن هذا خطأ كبير؟

يقول الحكيم الخواجة إنه «عند الاختيار بين خطأين، يختار الخطأ الذي لم يفعله من قبل»، أنا شخصيًّا ليست لديَّ هذه الرفاهية، أخطائي القديمة أسرع من قدرتي على التفكير في هذا الاختيار .

عند سيد حجاب سؤال: «يا ترى اللي بيعيش الزمن إحنا.. ولَّا الزمن هوَّ اللي بيعيشنا؟ » ، وعندي سؤال: إن كنت أحب أخطائي أم أنها هي التي وقعت في غرام اللحظة التي تنقبض فيها معدتي أسفًا على فقدان «ورق الدرس»؟

يقول الأبنودي: «مين ياخد قلبي المليان.. ويديني قلبه الفاضي؟»، أفكر أنه في حال نجاح هذه الصفقة معي، فسوف يمتلئ قلبي الفاضي بالندم على قلبي المليان، لأنني لن أكون أنا وقتها، فأنا أخطائي .

أفكر في الخطأ الذي جرني إلى هذه المتاهة، بخلاف الاستماع إلى فريد الأطرش بعد منتصف الليل، كنت مخطئًا إذ «عملت دماغي بدماغ الولاعة ».

مهما الأيام تعمل فينا

في نهاية اليوم التقيت جاري في الأسانسير، كان وجهه مبتسمًا عن قناعة وليس مجاملة للصدفة التي جمعتنا، قلت له: «شكله كان يوم حلو»، فقال دون تفكير: «نسبيًّا ».

وقعت في غرام جاري لأنني اكتشفت أنه من النوعية التي أحبها، النوعية التي توقن تمامًا أنه لا إجابة نهائية على ظهر الكوكب، وأن كل شيء يستحق كما قال لي الجار لقب «نسبيًّا ».

هناك حكمة أجنبية شهيرة تطلب مننا أن «نستمتع بالأشياء الصغيرة لأننا يومًا ما سنعرف أنها كانت كبيرة». تحكم النسبية أمورًا كثيرة في حياتنا، يقول الصينيون إن «المتفائل مجرد شخص عديم الخبرة»، ويقولون أيضًا: «لا يوجد شيء اسمه الحظ». المحظوظ من وجهة نظرهم هو مجرد شخص يعرف ما يريده بالضبط، وبناءً عليه يقوم بتسخير كل ما يقابله في طريقه لخدمة ما يريده بنجاح، وهو ما يعتبره الآخرون «حظًّا ».

النسبية في الحب أيضًا، يمكن التعرف على ذلك في أسطورة هندية تحكي عن كون «الغياب يقتل قصص الحب الصغيرة، لكن قصص الحب الكبيرة تقوى به، بالضبط مثل الرياح التي تطفئ شمعة فوق منضدة لكنها تزيد النار اشتعالًا في غابة ».

يقول الحكيم المصري إن «الحب حاجة والجواز حاجة»، عدنا إلى النسبية من جديد. أنا شخصيًّا أحسد من تزوج عن حب مرَّة، وأحسد من أحب عن زواج ألف مرَّة، وأحسد من لم يتزوج أصلًا حتى يفعلها، لكن الحكيم الخواجة يقول إن «الزواج الناجح هو أن تقع في حب الشخص نفسه أكثر من مرَّة ».

يقولون إن الزواج «شركة»، وأكثر من نصف مشاعر العاملين في أي شركة مخبأة، ويتم إدارة البقية المفضوحة بالميل إلى أكل العيش، هكذا الزواج أيضًا .

يقول الكاتب عبد الرحيم كمال إن المرأة تؤمن بأن «ضِل راجل ولا ضِل حيطة»، ليقينها أن الموضوع أكبر من مجرد حائط يداري الشمس. أنا شخصيًّا أؤمن أن البيوت الناجحة هي ناجحة بفضل نسائها حتى ولو لم يكن هذا ظاهرًا للشهود .

في أحد الأفلام الأمريكية قال البطل لعروسه إن خاتم الزواج هو أجمل وأصغر «كلبش»، لا توجد «كلبشات» جميلة أبدًا، ولكن الحياة نبات، ولن تكون هناك حياة ما لم تكن الجذور حبيسة التربة، أجمل ما في الزواج أنه يصنع لك جذورًا في الأرض، وهذا هو أيضًا أسوأ ما فيه، عدنا إلى النسبية .

تعرف أنك تعاني من البطالة رغم الوظيفة التي تمتلكها، عندما توقن أنه لن يتوقف شيء بسبب غيابك، العمل مستمر بنجاح، في هذه الحالة أنت حبيس البطالة المقنعة، ولا هروب منها إلا بأن يؤمن الجميع باستحالة أن يقوم شخص آخر بما تقوم به. تقول الحكمة الأمريكية إن «الشخص المهم بالفعل ليس الشخص الذي تشعر بوجوده، ولكن الشخص الذي تشعر بغيابه ».

هناك أجيال كثيرة ضاعت بعد أن زرع شخص مجهول في وجدانها حكمة تقول: «أحب ما تعمل حتى تعمل ما تحب ». سيستنزفك الخضوع لما تعمل، ومهما فعلت لن تحبه، وعندما يأتي وقت مناسب لعمل ما تحبه، ستكون قد استهلكت فصوص التفكير المتميزة في أمور لم تحبها يومًا، ما لم تفعل ما تحب الآن وأنت في كامل لياقتك الذهنية والنفسية والصحية، فمتى إذن؟

حكمة خادعة مثل مقولة «عايز أتجوز علشان أستقر»، أفكر أن ما يجب أن يحدث هو أن يستقر الإنسان أولًا، ثم يتزوج. أو مقولة «عايز أتجوز علشان زهقت من القعدة مع نفسي»، طيب إذا كنت أنت شخصيًّا قد «زهقت» من «القعدة» مع نفسك، فما الداعي لأن تجبر واحدة بنت ناس على أن تعيش مع هذه النَّفس التي «ينزهق» منها؟ طريقة تفكير تذكرني بشخص كان يصيح في شخص آخر في شارع ما قائلًا: «إنت بتحسبن في وشي؟»، كنت أود أن أسأله إن كانت النتيجة ستصبح أقل وطأة إذا فعلها في مكان بعيد؟

النسبية حاكمة ..

يقولون إن المال لا يجلب السعادة، طيب والسعادة لا تجلب المال، خالصين .

يقولون إن القلق مرض العصر، لكنْ هناك قصص نجاح، سر نجاحها أن أبطالها يعيشون معظم الوقت في قلق .

يقولون الحياة طريق، أضيف أن الحياة طريق والناس حوادث .

يقولون خلف كل رجل عظيم امرأة، وأضيف أنه خلف كل رجل عظيم امرأة جعلته «يطلَّع همه في الشغل ».

يطالبون دائمًا بمراعاة الذوق العام، طيب كيف يمكن الحكم على شيء بقانون مراعاة الذوق العام، إذا كان الذوق العام فاسدًا أصلًا؟ !

يقولون إن الواحد لا بد أن يُحسن اختيار أصدقائه، أنا شخصيًّا أرتاح للأصدقاء الذين اختارهم لي القدر أكثر من ارتياحي للأصدقاء الذين اختارهم الواحد بنفسه .

النسبية حاكمة، لذلك يهرب الواحد من فكرة أن يقول بيقين إنه يمتلك إجابات قاطعة ونهائية بخصوص أي شيء أو أي شخص، ولكن ما يزعجني هو أن البعض يصر على أنه يمتلكها .

ما تفوتنيش أنا وحدي

سألت ابن شقيقتي مداعبًا: «هو الضمير موجود فين في جسم الإنسان؟». كنت أعتقد نفسي بسؤالي هذا «صايع»، لكن ابن أختي فاجأني بالإجابة «الأصيع» عندما قال: «الضمير موجود في الجسم كله ».

لا أجد وصفًا للضمير إلا نسخة الفنان محمود مرسي في مسلسل «أبو العلا البشري»، فنان كبير يؤدي دورًا عظيمًا من المؤكد أنه كان بديعًا على الورق، لكن الحياة لا تسير بهذه الطريقة. تقول الحكمة الأجنبية: «الضمير لا يمنعك من ارتكاب الخطأ، لكنه يمنعك من الاستمتاع به». كان مرسي الذي يلعب دور الضمير في المسلسل بلا زوجة أو أولاد، تبدو الحياة ثقيلة بالفعل في صحبة الضمير، العادي فيها هو التأنيب وجلد الذات، وأن تجد نفسك تغني له «ما تفوتنيش أنا وحدي أفضل أحايل فيك.. خلي شوية عليَّ وخلي شوية عليك»، لكنه ملوش في «الغنا»، وراحته شروطها صعبة، لكن الحياة بدونها مستحيلة، وعذابه مؤلم مثل نظرة الأم عندما ترتكب خطأً في حضور الضيوف، والمسكنات في حضرته عمرها قصير، والألم يزداد بزوال أثرها .

موضوع سطوة نظرة الأم يذكرني دائمًا بأننا سنموت قبل أن نعرف كيف استطاع أهالينا أن يربونا، الواحد يعتبر نفسه ما زال في طور التربية حتى يومنا هذا، ويتعلم كل يوم شيئًا جديدًا، ومثلما تعلم الواحد أنه في الكوكب كله ليس هناك عمل أنبل من مساعدة شخص في عبور الطريق، تعلم أيضًا أن أكبر دليل على أن «ربنا ما يرضاش بالظلم» هو أن الجودزيلات انقرضت بينما بقيت الفراشات .

تقول الأسطورة الهندية: مات رجل وذهب إلى الجنة، التقى بملاك فسأله لماذا خلق الله المرأة جميلة؟ فقال له: «علشان تعجبك»، فسأله ولماذا خلقها ساذجة؟ فقال له «علشان ترضى تحب واحد زيك». يكون الضمير في أكسل حالاته فقط في العلاقات العاطفية، الحقيقة كل ما يمكن أن يفكر يتعرض للعطل على هامش العلاقات العاطفية مثل الضمير أو العقل .

وتقول حكمة أجنبية: «مشكلة الزواج ليست في العثور على الشخص المناسب، ولكن في أن تكون الشخص المناسب». أؤمن أنه إذا صلح الضمير صلح الغرام، حتى لو كان نهايته الفراق، أصحاب الضمير فقط هم من يجيدون كتابة نهاية يصبح الوجع فيها ضيف شرف .

تقول الحكمة الإيطالية: «الفرق بين الشجاع والجبان أقل من 3 ثوانٍ»، أعتقد أنها المدة التي ينتصر فيها صوت الضمير على أية أصوات أخرى .

ويقول سيد مكاوي: «وأرجع تاني أقولك ريحني الله يهديك.. علشان المركب تقدر تمشي بيَّ وبيك»، لكن الضمير ربان أعالي بحار مغرور لا يقبل شراكة في قيادة المركب، إما تشاركه الرحلة بشروطه أو فلتبقَ وحيدًا على شاطئ الندم، والندم قاسٍ، ويظهر لك من تحت الأرض، وهو محير، أو كما قال صلاح جاهين: «أندم على الفرص اللي سبتهم.. ولَّا على الفرص اللي ما سبتهمش»، والندم من وجهة نظري إعاقة، لن يشفى منها الواحد إلا بترك القيادة للضمير ليقرر ما يجب فعله، ربما كان الاعتراف بالخطأ علاجًا، وهو أمر أكثر رومانسية من الاعتراف بالحب .

وهناك قصة كتبها «جاليانو» في كتابه «صياد القصص» عن ملك اصطاد حيوانًا، وطلب من الطباخ أن يطهو له أفضل عضو فيه، فطهى اللسان، بعدها بأيام اصطاد الملك حيوانًا آخر وطلب من الطباخ أن يطهو له أسوأ عضو فيه، فطهى اللسان أيضًا. وقالت إحدى الدراسات أن 70%

من حالات الندم كان لها علاقة بـ«اللسان»، ويقول مثل إنجليزي شهير: «اسمع كثيرًا ستعرف الحكمة، تكلم كثيرًا ستعرف الندم ».

هناك أفكار كثيرة ندم الواحد على التخلص منها ليفسح مكانًا لأفكار جديدة، مثل حكمة «مارك توين» التي تقول: «عندما تجد كل الأشياء تقف في صفك، اعرف فورًا أنك تقف في المكان الخطأ»، أو الحكمة الإنجليزية التي تقول: «الحرية تُقاس بكمِّ الأشياء التي تخاف أن تفقدها، والعظمة تُقاس بعظمة الأشياء التي تجلب لك التعاسة»، لكنني لم أتخلص أبدًا من مقولة «فيكتور هوجو»: «الضمير هو أحد الطرق التي يقدم بها الله نفسه للإنسان ».

علمتني إجابة ابن شقيقتي ما لم أكن أتوقعه، ذكرتني الواقعة بالأستاذ ميخائيل أستاذ التاريخ في المدرسة الإعدادية عندما قال لنا: «في مدرسة الوزارة تتعلم ثم تخوض الاختبار.. في مدرسة الحياة تخوض الاختبار ثم تتعلم». يحاول الواحد أن يتعلم ما يجعل ضميره مستريحًا، يقول المثل الإنجليزي: «هناك نوعان من الناس: نوع يعطي ونوع يأخذ، من يأخذ يأكل جيدًا، ومن يعطي ينام جيدًا»، ويحاول أيضًا أن يتعلم كيف ينظر للجانب المضيء في تأنيب الضمير، يقول «جاكوب ديلان»: «وخز الضمير أمر جيد، فهو على الأقل يعني أنك تمتلك واحدًا ».

قبل النوم بـ20 دقيقة

يمر الوقت الذي أنتظر فيه النوم مستلقيًا في الفراش بثلاث مراحل .
في المرحلة الأولى يساعدني الخيال في أن أصبح شخصًا آخر، الشخص الذي أحب أن أكونه، أعزب، صاحب ثروة، وشقة واسعة بسقف عالٍ، في الطابق الأخير، تطل على ميدان طلعت حرب، وجواز سفر مليء بالتأشيرات بما يسمح بقضاء آخر أسبوع من كل شهر في دولة ما، هأنا الآن بالفعل في «كوبا»، أحتسي مشروبًا استوائيًّا، مستندًا إلى جدار ملون في شارع شمسه مشرقة، وموسيقى وبنات سمراوات يرقصن، شخص غير مطالب بأي شيء، يكفيه أن يحيط الأب والأم بالحنان والرعاية والاهتمام الحقيقي، ربما أنا الآن، كما أحلم دائمًا، صديق مقرب من أبي، عام 1962 نقف أمام سينما قصر النيل في انتظار فتح أبواب الدخول لحفلة أم كلثوم التي ستغني فيها لأول مرَّة «ألف ليلة وليلة»، أفكر أنه لا مانع من الإقامة أنا وأبي وأمي فقط في بيت واحد، لتكن فيلًا بطابقين وحديقة واسعة مليئة بأشجار الموالح على طريق الإسكندرية، لن أغير مهنتي، أكتب أشياء مبهرة تحصد المحبة، مثلًا أكتب أغنيات ألبوم مطربي المفضل القادم كله بمفردي، أين الجوائز؟ أقرر أن أتسلم واحدة، فلتكن أوسكار أحسن قصة عن روايتي التي تمت ترجمتها للإنجليزية وأعجبت «ستيفن سبيلبرج» فحولها لفيلم عظيم، أنا الآن أجيد العزف على الكمان، أو الكلارينيت أفضل، أجيد أيضًا الطبخ، والقفز مع الدوران في الهواء، وركوب الأمواج، والحديث إلى القطط، أنا الآن وحيد تمامًا، شخص يمرح بوحدته ويدير علاقته بالناس بما لا يجرح توحده .
في المرحلة الثانية، بعد هذه الفقرة الممتعة، وبعد أن يهدأ الخيال أعود إلى الواقع قليلًا، أفكر فيما أقدر عليه بالفعل، وأعد قائمة بكل ما سأبدأ في تنفيذه من صباح الغد بحثًا عن حياة أفضل .
سأقلع عن أغبى عاداتي، وهي الإمساك بالموبايل فور استيقاظي من النوم والتسلل إلى فيس بوك أو تويتر قبل أن أغسل وجهي أو أقول للعالم صباح الخير، وهو الأمر الذي يجعلني أنزل إلى الشارع وأنا «راكبني ميت عفريت» مجانًا، أما الرجل الفلاح الذي يعرض على قارعة الطريق بضاعته البراقة الجميلة المكونة من عناقيد الجزر الأصفر والجزر الأحمر وحبات البنجر وثمار اللفت، والذي أمر به يوميًّا مكتفيًا بالاستمتاع بمنظره، فسأتوقف عنده وأشتري منه بعضًا من بضاعته الرائقة، ليس للأمر علاقة بالجزر أو البنجر ولكنه على سبيل التعبير عن الامتنان تأخر كثيرًا .
سأزرع في شرفة المنزل شجرة ياسمين، سأتصل بكل الذين أحبهم قبل أن يرحلوا عن حياتي لأسأل كل واحد على حدة: «إنت ليه ما بتقوليش إنك بتحبني قبل ما تموت؟ ».
أي واحدة لديها مشكلة ما مع زوجها وطلبت مني نصيحة زوجية، سأقول لها نصيحة واحدة أيًّا كانت المشكلة: «روحي للكوافير، الرجل تافه»، وإذا طلب مني رجل نصيحة مستقبلية عن الزواج سأقول له نصيحة واحدة: «لا تتزوج واحدة كسول»، كسل المرأة ينعكس على كل شيء في حياتها، من التعبير عن مشاعرها إلى ضبط درجة الملح في الطعام .
سأنزل مرة واحدة على الأقل أسبوعيًّا لأتمشى في شوارع وسط البلد من الخامسة إلى السابعة صباحًا، وهي الفترة الوحيدة التي يمكنك أن تتأكد فيها أنك ما زلت تحب البلد. سأحذف من الديكودر كل القنوات التقليدية المألوفة التي يشاهدها الجميع، وسأترك قنوات تصنع لي عالمًا

يخصني ويرضيني. سأكتفي بقنوات «ميكي ماوس» و«رويال سيكرت» و«تلفزيون تشاد» و«فتافيت» والقناة الثانية المغربية .
تنفد الأموال سريعًا قبل أن تتم ترجمتها إلى شيء عليه القيمة، لذلك سأورط نفسي في 3 أقساط على الأقل بنهايتها يصبح لديَّ شقة صغيرة وفدان في الصحراء سأزرعه رمان وماكينة اسبرسو، سأخصص كل سبت لدعوة صديق على الغداء بشرط أن يكون خارج القاهرة، لنصنع ذكريات جديدة مع أصدقائنا بدلًا من الذكريات القديمة التي نستعيدها هي نفسها بحذافيرها كل مرة .
سأفتح على فيس بوك حسابًا باسم وهمي مستعار، سأعبر من خلاله عن وجهة نظري في كل شيء بـ«الشتيمة»، السباب أحيانًا يكون منطقيًّا وموضوعيًّا وبليغًا في التعبير عن وجهة النظر، سأقوم بقراءة مؤلفات كل الكُتَّاب الذين أعرف أنهم مهمون لكن لم يسبق لي أن قرأت حرفًا لهم (عبد الرحمن الشرقاوي مثلًا)، سأقوم بفك السيلوفان عن كل الكتب الجديدة التي تتناثر في غرفتي وسأقوم كل شهر بتلخيص كتاب وعمل «بريزنتيشن» له أمام بعض أصدقائي التافهين .
سأشتري بطاريات جديدة لكل «ريموتات» البيت، انتهى زمن العضعضة، صارت ضروسي تؤلمني. سأعود للدفاع عن كل الثوابت التي قمت بتكسيرها وأنا منتشٍ بغرور الشباب، سأذكر نفسي دائما بمقولة الناقد في فيلم «الفأر الطباخ»: «النقد عمل لا مغامرة فيه». سأعلق علم مصر بالحجم الكبير في البلكونة، ثم أمنح نفسي بعض الوقت للتدريب على «الرضا»، لأن «الشعلقة» بين ما حدث بالفعل واستقر وبين الاكتشافات المتأخرة عذاب، يعني بعد أن تستقر في المعادي ثم تكتشف أن الكوربة أجمل وأدفى، فهذا مهلك ما لم تواجهه بالرضا، لن أسمح للكوربة أن تفسد ما تبقى من حياتي .
سأشتري ملابس داخلية رائقة البياض بعد أن غيَّرت الملونة شخصيتي، ولن أسير وجيبي خالٍ من المفاجآت التي يمكنني أن أقدمها للعالم طول الوقت (عسلية بالسمسم، حبات النوجة، شريط بانادول إكسترا، أقماع بخور هندي)، سأستعين بمجموعة من الصعايدة لهدم حائط في منزلي، الحائط المطل على الشارع، وسأضع بدلًا منه حائطًا زجاجيًّا، من ناحية ستكون شقتي مشرقة طول الوقت ومن ناحية أخرى سيساعدني هذا على التخلص من حماقة «تحديف الناس بالطوب ».
سأكثر من تناول الفاكهة، وسأقوم بـ«نقع» الدوم والتمر هندي يوميًّا وسيكون خليطهما المشروب الرسمي لبيتي، وسأشتري دمَّاسة وسخان كهرباء وسأقوم بتدميس الفول بنفسي في البيت، سأضع دفاية في الحمام، بالقرب منها سأضع منصة للشموع ذات الرائحة .
لن أفوت أبدًا واجب عزاء أو دعوة فرح، سأبذل مجهودًا أكبر في أن أشارك الناس لحظاتهم النادرة لأكتشفهم من جديد وأكتشف نفسي بالمرة، وسأغلق موبايلي طول الوقت ولن أفتحه إلا عندما أريد الوصول لشخص ما، من يريد الوصول لي (دي مشكلته بقى). سأطلب أن أتصور سيلفي مع أي شخص أضبطه يقوم بعمل محترم، حتى لو كان شخصًا يلقي القمامة داخل الصندوق بالضبط. سأسامح أي شخص يحاول أن يقدم فنًّا، حتى لو كان مستواه أقل من المتوسط، لكن لن أرحم أي واحد من جمهور هذا الفنان يعطيه أكبر من حجمه أو أكبر من حقه أو أكثر مما يستحق .
مش هاخد بالباقي لبان، ولن أقف على باب أي مطعم لأنتظر دوري حتى يسمحوا لي بالدخول وتناول الطعام، فهذا أمر مهين لا أعرف كيف تقبله الواحد من قبل. سأكافئ نفسي في كل مرة

أتخلى فيها عن عادة من عاداتي القبيحة بتذكرة سفر إلى مراكش، وسأقلع عن أن ألوم نفسي بقسوة، وهذا هو الفعل الوحيد الذي سيجعلني أقلع عن أخطائي .
لن أقرض أحدًا كتابًا... سأمنحه له هدية، وسأتعصب لفريقي الذي أشجعه أكثر من ذي قبل... الكرة الحقيقية قوامها التعصب. سأشتري تذكرة لحفلة الشاب خالد القادمة أيًّا كان مكانها، لن أرتدي ساعة لأستمتع ببهجة سؤال: «الساعة كام»، وفرحة: «ياه ده لسه بدري»، أو إثارة: «أوبا ده أنا اتأخرت»، سأذهب يوميًّا إلى الجيم لا من أجل الرشاقة، بل من أجل اللياقة، فالحياة صعبة، وتحتاج إلى النفس الطويل .
يراجع الواحد كل هذه القرارات، ويتأكد أنها قد استقرت في ذاكرته، لتبدأ بعدها المرحلة الثالثة: مرحلة التأنيب، والتي إذا استسلمت لها ستنقلب جلدًا للذات .
أعرفها جيدًا لحظة دخولها بانقباضة في الصدر، هذه هي اللحظة التي أبحث فيها عن وسادة صغيرة، لأدفن رأسي تحتها وأغمض عينيَّ وأعد مائة خروف أبيض اللون يقفزون من فوق سور مزرعة بالترتيب، محاولًا أن أندمج معهم بكل كياني حتى يسيطر النوم سريعًا، ليس خوفًا على خيالاتي الجميلة، وليس خوفًا من الأرق، ولكن خوفًا من نفسي .

تسريبات مكالمات صديقي السرية

قلت لصديقي: «ألا تخاف يومًا يظهر فيه للناس تسريبات لمكالماتك التلفونية؟ ».

قال صديقي: «هذا يوم مرعب، ومن الذي لا يخشاه في مصر، لقد لعب سنترال رمسيس دورًا في التاريخ الحديث لا يقل تأثيرًا عن الدور الذي لعبه رمسيس نفسه في وقته، ستكون مشكلة كبيرة أعتقد ».

قلت له: «ما الذي تخاف أن يعرفه الناس عنك؟ ».

قال: «ليس للأمر علاقة بأسرار أو فضائح، لكنه مرتبط بأن يدخل عليك الناس وأنت «ملط» فجأة بدون استئذان، أن يتأملوك وأنت غارق حتى أذنيك في التردد، وأنت «بتعمل أوردر» شخص لا يستطيع أن يتخذ قرارًا حاسمًا بخصوص إن كان يفضل الأوردر سبايسي أو عاديًّا، شخص لا يستطيع حسم قرار من هذه النوعية فما بالك بالقرارات المصيرية، تفاهتك العظيمة وأنت تبدي امتعاضك من عدم وصول الطحينة الزيادة وغياب المخلل، محاولة استعراض أستاذيتك على الكبابجي في الطريقة التي يجب أن يسوي بها الكفتة، مشاجرتك التافهة مع كنتاكي لأنك طلبت الوجبة كلها «صدور»، بينما الأوردر الذي وصل إليك كله «أفخاذ » ، اعترافك لرجل المطعم أنك لا تحب «الأفخاذ»، هذه فضيحة، من الممكن أن يتربص بك أحدهم في الأجواء المجنونة التي نعيشها ويقتطع من المكالمة ما يجعل سيرة الصدور والأفخاذ تسريبًا جنسيًّا .

كيف يمكن لأحد أن يتفهم محبتك لصديقك الذي تسأله في منتصف المكالمة «إنتِ فين يا حبيبتي؟»، أو «قافلة تلفونك ليه يا كلبة؟»، اعرض مكالمة من هذا النوع على صاحب محل عصير «ملك المانجة والفراولة» اللي في غمرة، وتأمل رد فعله .

كيف لأحد أن يفهم فكرة أن مخزون البذاءة الذي تجهضه طوال الوقت احترامًا للناس لا بد أن يتم تفريغه أولًا بأول حتى لا تنفجر. هذا المخزون الذي يكتم على أنفاسك تفرج عنه في حضرة الذين تحبهم معبرًا مرَّة عن غضبك الشديد من أحدهم بـ«ده أنا لما أشوفك هاعمل وهاعمل»، أو معبرًا عن حماسك وإعجابك بفيلم «ابن...»، أو حكم كرة قدم ظالم يحتاج والده إلى عمل اختبار «دي إن إيه» إثباتًا لحسن سير وسلوك الست أمه، أو معبرًا حتى عن وجهات نظرك السياسية، ستتحول في عيون من يستمع إلى التسريبات إلى شخص بذيء اللسان لا يشبه النسخة المتاحة للعامة، والحقيقة أننا جميعًا لا نخلو من بذاءة، ولكن الفرق في القدرة على قيادتها. البذاءة تشبه الأندر وير، هناك من لا يمانع في النزول إلى الشارع بالأندر وير، وهناك من يحتاج لظروف خاصة وشروط صعبة حتى يفرج عن أندر ويره ».

كنت أضحك، بينما صديقي مسترسل في كلامه .

صديقي: «بتضحك؟ طيب قل لي: كيف يمكن لأحد أن يستمع لتسريبات تجعلك منافقًا برخصة، تشكو لزوجتك من صديق ما، وفي مكالمة أخرى تشكو لهذا الصديق تحديدًا من زوجتك، كيف يمكن تفسير الأمر لكليهما؟ ستحتاج إلى معجزة لتشرح لكلٍّ منهما أن الأمر له علاقة بالمحبة، تشكو من شخص تحبه لشخص تحبه، هذا سقف الشكوى عندك، هذه هي دائرة شكوتك لا تستطيع أن تغادرها، بس الكلام ده هتقوله في محكمة الأسرة .

شخصان في مشكلة، تطلب من كل واحد منهما أن يأخذ الآخر «على قد عقله»، تفعل ذلك ولديك يقين أنك أذكى إخواتك وحمامة سلام، إذا استمع كلاهما للتسريب ستكمل حياتك بعدها في سلام

ولكن بدون حمامة .
من سيفهم أن النميمة ساحرة؟ خمور تذهب العقول، تحتاج بعد أول كأس إلى معجزة لكي تتوقف، حكايات مجانية تتبادل نخبها مع صديق أو قريب في صحة الغائب، مرَّة للضحك، مرَّة للتحليل، مرَّة لاسترجاع الذكريات، مرَّة لمهاداة من يحدثك بسر مقابل سر قدمه لك، حكايات قد تراها غير مؤذية، لكنها ستصبح كذلك مع أول تسريب .
يعتبر كثيرون أن الطبيب النفسي «صديق بأجر»، شخص يتلقى أموالًا حتى يستمع إليك فتهدأ ويعود إلى خلايا روحك بعض الانسجام. هناك أشخاص لا يكلفونك سوى أجر المكالمة، تحكي لهم ما لا تود أن يعرفه أحد، لكن لا بد أن يخرج إلى النور قبل أن «تفطس»، أحلامك، نقاط ضعفك، إحباطاتك، أشياء ندمت عليها، أفكار كثيرة تؤرقك تريد أن تدفنها عند شخص ما، كيف ستتعامل مع فكرة أن ما أردت أن تدفنه أصبح يعيش إلى الأبد، العالم كله يعرف الآن أنك كنت تنصب على أمك في موضوع فلوس كتب الجامعة، وأن أمين شرطة لم يعجبه ردك فأنزلك من الميكروباص ورزعك على قفاك، وأن أول واحدة اعترفت لها بحبك قالت لك : «أنا أحبك إنت يا معفن؟!»، وهكذا ».
قلت لصديقي: «هل تعرضت لكل هذا؟ ».
قال صديقي: «لا يا عم إنت باقولك مثلًا.. أنا اتعرضت لما هو أنيل كثيرًا، وبالمناسبة، على سيرة الدكاترة، يتصل الواحد أحيانًا بأصدقائه الأطباء يستشيرهم في أشياء يشعر بالحرج من عرضها على أطباء آخرين، ستسمعك مصر كلها تدقق في السؤال عن الفرق بين «الشرخ والبواسير»، أو تطلب ترشيحًا لنوع معين من المقويات يجعلك تتشقلب كالجدي في غرفة النوم، أو تطلب نصيحة لعلاج مسألة مثل أنك بـ«تريّل وانت نايم»، أو عن الحباية اللي طالعالك في مكان حساس. هذه أمور محرجة جدًّا، وسيظل الناس يسألونك حتى تموت: «وإيه أخبار الحباية ».
حتى في السياسة، ستبدو في عيون من يستمع إلى التسريبات مجنونًا أو منافقًا لأنك أحيانًا لا تقوى على التورط في حوار، ليست لديك رغبة في الحديث، أو تؤمن أنه مفيش فايدة، فتكون النتيجة أنك تريح من يتحدث إليك حتى تنتهي سريعًا، تريحه بكلمات تطمئنه ليحل عن سماك مهما كان كلامه فاسد المنطق غير موضوعي، يقوم على الجهل والفهلوة، فتقول : «نعم وآه ويمكن وعندك حق» في خمس مكالمات متتالية لشخص يحب مبارك، ثم شخص يحب الثورة، ثم شخص يكرهها، ثم شخص يحب الإخوان، ثم شخص يحب السيسي، ثم شخص يحب ياخد كل حاجة مع إن أمه محتاجة .
هناك أشخاص سينفخونك بلا شك، شقيقك الذي وشيت به لأبيك عن الكارثة التي قام بها، أبوك الذي قلت عنه تبريرًا لشقيقك الذي عرف بما فعلته، أنك فعلت هذا لأن بابا شراني ومجنون، جارك الذي تبتسم في وجهه كل صباح بينما تعترف لصديقك أنك فصلت الكهرباء عن شقته «علشان التكييف اللي بينقط»، رئيسك في العمل الذي أعلنتها في حقه بصوت عالٍ في مكالمة ما : «ما بيفهمش وملوش فيها»، حماتك اللي مسخناها، فلان الذي يلاحق فلانة عاطفيًّا وهي «بتشتغله»، زميلك في العمل الذي يعاني من الغازات طول الوقت، خالك الذي نصب عليك في ميراث أمك، طبيبك المعالج «اللي طلع حمار»، الموظف الذي أنهى المهمة المستحيلة مقابل رشوة، فلان المعرفة الذي يعاني من متلازمة «شبعة بعد جوعة »».
قلت لصديقي: «هذا ملخص مكالماتنا جميعًا ».

قال صديقي: «لذلك هو أمر خطير ».

مع صديقي في سينما جالاكسي

كنا نجلس أنا وصديقي داخل قاعة السينما في انتظار أن يبدأ فيلم الرعب الأمريكي، قال صديقي: «أتمنى أن يكون فيلمًا جيدًا، وأن ننجو من مصير فؤاد حداد عندما قال بأسى: «سهرتنا ضاعت.. على بضاعة.. الأمريكان»، فهذا في حد ذاته أمر مرعب، أن تدور على الفاضي في فلك الإثارة دون أية نشوة حقيقية ».

سألته عن أكثر ما يرعبه في حياته، فقال: «يرعبني أن يأتي يوم لا أستطيع أن أفتح فيه النافذة ليدخل ضوء الشمس. يرعبني أن يدخل العالم في منحنى يصبح فتح النافذة فيه مخاطرة حقيقية. أن نصل إلى اليوم الذي تكون فيه النجاة مرتبطة بقدرتك على الاختباء. خُلِق الإنسان حرًّا، لكن العالم يفرض عليه طريقة للحياة، لا يملك الواحد رفاهية أن يقاومها، ينسحق أمامها، ومع كل خطوة يفقد قطعة من فطرته، يومًا ما ستختفي الفطرة تمامًا، وستتمنى لو أنك تعيش في فاترينة أجهزة تلفونات محمولة ذكية .

تتنازل عن حريتك، وتعتقد زورًا أنك توسع دائرتها. تعتقد أنك حر فيما تكتبه على فيس بوك، لكنك في الحقيقة عبد لفيس بوك. تعتقد أنك حر في التوقف أمام محطة التلفزيون التي تعجبك في أي وقت لأي وقت، لكنك في الحقيقة عبد لـ«الريموت كنترول». تعتقد أنك تتحرك بحرية تامة، لكن الحقيقة أن العالم جعل حدود حركتك الحرة دائرة مغلقة. ستستيقظ يومًا تسأل نفسك: «أنا عايز إيه؟»، ستكون على باب العودة إلى الفطرة عندما تؤمن أن «كل اللي إنت عايزه» أن يتركك العالم في حالك .

أخاف أن أختبئ ».

قلت لصديقي: «وكيف تتقي شر لحظة عدم قدرتك على فتح النافذة؟ ».

قال صديقي: «بالمشي. لا بد أن تمشي كثيرًا، دون هدف، دون أن تمتلك محطة ينتهي عندها المشي. ضع قدميك على الطريق وانطلق، مع كل خطوات تقطعها يُمحى تلقائيًّا حرف من صك عبوديتك. عندما تمشي تمشي إلى جوارك الأفكار العظيمة التي تحملها روحك، تتنفس هواء غير سابق التجهيز، تتولد كهرباء تعالج أمراضك النفسية تمامًا، مثلما تفعل جلسات الكهرباء في المصحات النفسية، لكن الكهرباء هذه المرَّة طيبة. بينك وبين نسختك الأولى كإنسان ملايين السنوات، كل مرَّة تمشي تحرق مسافة جديدة بينكما، استمر في المشي حتى تصل إليه ».

قلت لصديقي: «وكيف أعرف أنني قد وصلت إليه؟ ».

قال صديقي: «عندما تعرف بالضبط ما هو الخطأ الأساسي في تجربة حياتك، عندما تمسك بالثغرة التي يتسلل منها كل ما يتعسك، ستراها فجأة واضحة أمامك، وستعرف وقتها أنك وصلت إليه .

هناك كثيرون يعيشون حياتهم بتقنية الـ «Gif».

تقنية المشهد الذي يعيد نفسه .

ولن ينجو أحد من هذا المصير إلا بالمشي.. المشي كثيرًا حتى لا يعيد المشهد نفسه ».

قلت لصديقي: «ألا تخاف من الفشل مثلًا؟ ».

قال: «كل شيء في العالم نسبي، لقد فشلت فيما نجح فيه بواب عمارتي، وهو امتلاك جرأة إشعال النار في بعض الأخشاب في «قروانة أسمنت» بعد منتصف الليل أمام العمارة يتدفأ ويصنع الشاي

بالنعناع. نجاح ذكر النحل في تخصيب الملكة هو فشل في القدرة على مواصلة الحياة، بينما الفشل في الفوز بهذا اللقاء الممتع الشهي هو نجاح كبير .
كل فترة أتوقف لفحص ما أجيده، هو كثير جدًّا بالمناسبة، النجاح يكمن فقط في أن أُحسن الاختيار، ما قيمة أن تجيد شيئًا لا يفيد؟ يفشل الواحد عادة لأنه لم يحسن اختيار مهارة تناسب ظروفه وطبيعته ».
قلت لصديقي: «أعجبني السؤال: ما قيمة أن تجيد شيئًا لا يفيد؟ ».
قال: «بمناسبة أنك كاتب، هناك كُتَّاب كثيرون يكتبون كتابة حلوة، لكنها لا تفضي إلى شيء، هناك كتابة حلوة لا يريد منها الكاتب شيئًا سوى أن يشير باتجاه نفسه، تشعر أنه يقول لك في كل سطر: «شفت دي؟». عادةً من يخلص لمهارة الكتابة فقط لن يكتشف شيئًا مهمًّا، لكن من يخلص لمهارة اكتشاف الحياة من المؤكد أنه سيصبح كاتبًا جيدًا ».
قلت لصديقي: «يقول ماركيز: أكتب ليحبني أصدقائي !».
قال: «يقع الأصدقاء في غرامك أكثر كلما زادت مساحة اكتشافهم للحياة معك ».
*
كان الفيلم على وشك أن يبدأ، مع التترات غاص صديقي في المقعد، ثم التفت لي قائلًا: «وأنت! ما الذي يخيفك؟ ».
قلت له: «أن تختبئ يا صديقي.. أن تختبئ ».

سألت نفسي كتير ...

(1)

أين تجد السعادة؟

أجدها عندما أتصل في وسط اليوم بصديق، فأجد الكول تون «طاير يا هوى»، ينعشني رشدي لثوانٍ ممتدة الأثر. أتصفح فيديوهات «ذا فويس كيدز» منتشيًا بفرحة تكتسح الجميع عندما يستدير كاظم بمقعده وأغرق في «الشحتفة السعيدة» مع الطفل وأهله، جميعنا نقف فوق المسرح نقدم أقصى ما نستطيعه في انتظار أن يستدير لنا شخص ما. دش الماء الساخن مناسبة للبهجة، إذ يعود الواحد أسفله للفطرة (العري والأمطار)، الماء الساخن يمحو آثار الحضارة الزائفة ويعيد الواحد لأصله، الأمر الذي ينتج عنه أفكار رائعة، أكاد أجزم أن معظم الأفكار التي أخذت بيد الإنسانية خرجت أسفل الدش. يجد الواحد مساحة من الونس السعيد عندما يمرر له صديق فيديو للمقرئ «ممدوح عامر» وتسمعه يتلو: «مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ»، فتتأمل عظمة «إنه يسأل عليك نبي». ينتشي الواحد عندما يكتشف أن الدنيا هي التي تجري خلفه وليس العكس، وعندما يتأمل وضعًا ما بدقة فيتسلى باكتشاف أنه يستطيع أن يفعلها حتى لو اتخذ قرارًا ألا يفعل. الخيال نعمة كبيرة وجنة مجانية، ونصف ساعة قبل النوم في دفء البطانية يمنحك كل ما تحلم به، احلم، ماذا تريد؟ أن تعود طفلًا في بيت جدتك وتنقطع الكهرباء عليك أنت وأولاد عمك؟ أم أنك تحلم أن ترجع لأيام العزوبية وترمي فوق كتفك حقيبة وتتجول عبر أوروبا بالقطار؟ أم تريد الحصول على جائزة «ملناش بركة إلا أنت» ممن تحبهم؟ كله متاح، ولا يحتاج فقط إلا لقدر من الجرأة والتمرين. «قعدة الأصحاب» أصلًا جمالها في البحث عن الثغرات الضاحكة في الأزمات، أذكر منذ سنوات دخل علينا صديق يشكو اكتشاف أن والده تزوج واحدة سرًّا، عرفوا لأن المأذون أرسل القسيمة على العنوان في بطاقة الأب، وهو عنوان بيت أم العيال، فوقعت في يد الأم، وصديقنا يستنجد بنا لأن والده تلفونه مقفول وهو يريد أن ينبهه ألا يعود للمنزل لأن أم الصديق وأخواله في انتظاره، ظللنا نضحك حتى اتصل به والده، فقال الصديق: «ليلتك سوده يا بابا». رائحة الطبيخ الذي تحبه وهو على النار أجمل كثيرًا من الطعام نفسه، وتشغل حيزًا زمنيًّا أكبر في معية البهجة، مثل الساعات التي تسبق موعد مباراة الفريق الذي تشجعه. الجنيه الذي يظهر لك من تحت الأرض يلمس القلب أكثر من خمسين تعرف موعد وصولها وتترقبه. كان صديقي يتأمل المفارقة في أن المرتب «نزل» بينما مشوار القرافة مسبوقًا بـ«نطلع»، تلك المفارقة الذكية أسعدتنا بصديقنا «ابن الكئيبة»، وكان بائع الليمون ينادي قائلًا: «الله يهونها يا لمووون»، كان يبيع البشرى لا الثمار، فمر من قلوبنا .

(٢)

لماذا تحب السينما؟

تكفي قصص الحب، جعلتني السينما موجودًا في كل عصر، أقود دراجة عبد الحليم في شوارع الزمالك، ورائحة إيشارب شادية تكاد أن تسكرني (معبودة الجماهير). أنا الذي كنت أحمل المنديل الأخضر وألوح به عبر نافذة السجن لسعاد حسني بدلًا من عادل إمام (الحب في الزنزانة). أنا، وليس شكري سرحان، الذي لم يجد حائط أمان في عز قسوة القدر سوى في رفقة شادية (اللص والكلاب). كاد يقتلني الخجل وأنا أصطحب، بدلًا من أحمد زكي، شقيقة صديقه، إلهام شاهين، من

القرية حتى مقر شقيقها في القاهرة (البريء). كنت أقف أتابع بشغف من شباك الفصل ليلى مراد وهي تعلم الأطفال برقة (شاطئ الغرام). كاد الخجل أن يقتلني وأنا أقف في شرفة مقمرة أبحث عن حروف لأعبر بها لسعاد حسني عن الغرام الذي وقعت فيه بدلًا من عمر الشريف (إشاعة حب). عشت أزمة الحب الأول كاملة بدلًا من حليم في «الوسادة الخالية». وانكسر قلبي لفراق بوسي بنهاية «حبيبي دائمًا». أنا، وليس حسين فهمي، من وضع في جيبه الورقة التي تحمل سؤال «مَن أنت»، وهو يتبادل نظرات المحبة مع سعاد حسني (خلي بالك من زوزو). أنا، وليس نور الشريف، من ترك فرصة الاحتراف في الخليج كلاعب كرة ليظل إلى جوار السندريلّا وطفلها (غريب في بيتي). أنا، وليس أي ممثل آخر، من كان يقف أمام مديحة كامل في كل أفلامها واقعًا في غرامها. أنا، وليس رشدي أباظة، من عاش مأساة حبه الجارف لسعاد حسني صديقة زوجته الطيبة زبيدة ثروت في «الحب الضائع». أنا، وليس نور الشريف، من كان يقوِّي نفسه بمحبة نورا ويستعين بها على الوقوف في وجه الخطر (ضربة شمس). أنا، وليس أحمد زكي، من كان يؤمن أن قصة حبه العابرة للراقصة الشعبية محكوم عليها بالإعدام لأن قصتي كلها محكوم عليها بالإعدام (الهروب). أنا، وليس أحمد مظهر، من قتله الإرهاق بحثًا عن طريقة يستطيع أن يقنع بها الفتاة التي أحبها أن تخلع «النظارة السوداء». أنا، وليس محمود ياسين، من مد يده ليلتقط حبيبته التي سقطت أثناء سيرهما معًا، وأسعده أن ينقذها من وحل لم تقصد الوقوع فيه (الرصاصة لا تزال في جيبي). أنا، وليس عادل إمام، من كان يقف أمام عربة الكشري يدخن، وهو يتأمل عيون البطلة وهي تُعِدُّ له طبقًا (سلام يا صاحبي)، وأنا من ضحى بهذا الغرام لخاطر صاحبه. أنا صاحب الطاقية الصوف الذي كان يجري خلف نادية لطفي يغني لها «الحلوة» في «الخطايا».

كان الواحد، ولا زال، يعيش القصة كاملة من بدايتها حتى النهاية أيًّا كانت، فرصة حقيقية لأن «ينشل» الواحد بعض المشاعر الخارجة عن حسابات الواقع وضيق أفقه، جنون العاشقين، ومياصتهم أحيانًا، واستمتاعهم حتى بالعذاب، سيجارة الشباك ليلًا تفكيرًا في الحبيبة، لحظة تعثر الكلمات فوق الشفاه، الدراما المعقدة في علاقة «أحمد.. منى» بين شادية وذو الفقار في «أغلى من حياتي»، الكوميديا الحريفة في غرام شادية وفريد الأطرش في «أنت حبيبي»، الرقة واللطافة في كل قصص حب محمد فوزي، أو كما قال: «أصحاب الخيال في نعيم ».

(٣)

ما الذي يثير دهشتك؟

أندهش من مفارقة أن المراهق الذي حطَّم أهله جيتاره حتى لا ينشغل عن دروسه «هو اللي طلع فنان كبير»، بينما من اهتم أهله بموهبته منذ الطفولة خرج فنانا عاديًّا، وراجع مذكرات معظم حريفة الفن والكتابة والرياضة .

يدهشني عندما أزور مدينتي في الصعيد، ويسألني أحدهم عن أسرتي ويعرف أني أب لـ«بنتين»، يكون تعليقه التلقائي الشائع: «ربنا يعوض عليك»، بالرغم من أنه، وبمقياس الصعيد أيضًا، وبمراجعة القصص الشائعة، ستكتشف أن الخسائر والمصائب والفضايح مرتبطة أكثر بـ«خلفة الذكور» وبـ«النيلة» التي تستحقها «اللي عايزة خلف»، لن أغرقك في تفاصيل، لكنني لست منحازًا لمن قالوا «البنات هم للممات»، أنا منحاز لمن قالوا «البنات نعمات»، حسب ملحمة «نعناع الجنينة ».

أندهش كيف «يحلو» طبق الكشري فجأة، عندما تظهر أثناء التقليب بين حبات المكرونة القص خيوط قصيرة من الإسباجيتي، كيف يصبح لها فعل السحر وتزيد الطبق جاذبية، ومن هو الفنان مبتكر هذه اللمسة الفارغة مضمونًا، الآسرة على مستوى فتح النِّفس؟
أندهش من نفسي ومن آخرين عندما تكون هناك شكوى بخصوص انشغال الزوجة بالأطفال أكثر من برنس ليالي الشقة، أمير أحزان العيشة.. الزوج، لأن الواحد بقليل من التدقيق يكتشف أن غريزة الست وفطرتها «فيها أم مفيهاش زوجة». كثيرات فشلن كزوجات، ولكن كأمهات فالفشل بخلاف كونه نسبيًّا فهو أيضًا استثناء نادر، فطبيعي أن تنجذب الواحدة لـ«نداء الطبيعة» أكثر من انجذابها لـ«نداء الواجب ».
أندهش ممن يحتفظون بمستندات فساد تدين آخرين، ولكن لا يستخدمونها إلا وقت «العوزة» لأغراض تبدو شخصية، فهذا فساد من نوع آخر .
أندهش من قدرة بعض أصدقائي الزملكاوية على تقبل الوضع بمنطق أنه مثلما أخطاء التحكيم المزعجة جزء من لعبة كرة القدم، فسيادة المستشار جزء من تشجيع الزمالك .
أندهش من المسؤول الذي لا يجد طريقًا لإثبات القوة والسيطرة إلا بشراء «العداوة»، ومن الذين يقولون «الغايب حجته معاه»، هذا قول خطأ وصحته: «الخايب حجته معاه»، «الخايب» ماكينة مبررات وعبقرية فائقة في الغلوشة على الخطأ، بمداخلات تسحبك إلى ملاعب أخرى بعيدة يتركك فيها وحيدًا تضرب كفًّا بكف .
أندهش ممن يخاف من التغيير خشية إفساد حساباته المستقرة بينه وبين نفسه، يقاومه ويؤجله حتى اللحظة التي يصبح فيها التغيير حتميًّا، فيكتشف الواحد أنه غير قادر عليه بعد أن تيبست فصوص مخه و«عضلات فخاده ».
أندهش من المنسحقين الذين يعتقدون أنهم «بيدخلوا على فيس بوك كل شوية»، بينما الحقيقة أن فيس بوك هو «اللي بيدخل عليهم ».
أندهش من قدرة الزوجات ـ مهما اجتهد الزوج ـ على أن «يلطعوا» الزوج في انتظار الخروج أو الانصراف، أحلم أن أسمع زوجتي بتقولي «يلّا» مرّة واحدة في حياتي .
أندهش ممن يرون التعقيد مرادفًا للعمق، ومن أولئك الذين ينظرون للعمق بسطحية أصلًا، أولئك الذين لم تصلهم رسالة فؤاد حداد وهو يقول: «البساطة في منتهى الأُبهة ».
(٤)
أكثر موقف اختبرت فيه فرق الأجيال
مع أطفالك؟
سأحكي لك قصة :
في لحظة صفا نادرة مع ابنتي، جلسنا فيها معًا إلى جوار بعضنا، كطفلة أقلعت عن الشقلبة مؤقتًا، وأب يحاول أن يكون لطيفًا ـ مؤقتًا أيضًا. سألتني ابنتي عن الأفلام التي أحبها، تعاملت مع سؤالها حسب نصيحة كنت سمعتها في أحد تسجيلات صفية المهندس في برنامج «إلى ربات البيوت » تطلب فيه أن نتعامل مع أسئلة الأطفال بجدية، فذكرت لها فيلم «فورست جامب»، وقبل أن أشرع في حكي قصة الفيلم لها ليقيني أنها لا تعرفه، فاجأتني قائلة: «آه.. ده الفيلم اللي فيه الولد بيجري زي الصاروخ ده؟ آه حلو قوي » ، ارتبكت بشدة، واعتدلت في جلستي غير مصدق ما أسمعه، ابنتي ذات السنوات السبع عرفت الفيلم من اسمه، ولخصت قوامه الأساسي القائم على «Run

Forest run» في جملة. «إنتِ شوفتيه فين؟ » ، قالت: «في التلفزيون»، ثم أنهت المحادثة وانصرفت .
من المفترض أن أكون أبًا لطفلة في السابعة شاهدت فيلمًا بمفردها وفهمته، وتُكلِّم أباها عنه وهي واضعة ساقًا فوق ساق، أنا الذي عندما كنت في عمرها كان لا بد لي من إجراء مفاوضات مع الأب عبر وساطة الأم لـ«فتح التلفزيون» أصلًا، وأخوض مقايضات كبيرة لمشاهدة فيلم «إسماعيل يس في الأسطول» من أوله، وكان أول فيلم أجنبي أشاهده كاملًا «عمر المختار» في برنامج «نادي السينما» وكان مدبلجًا للعربية أصلًا، أنا الذي عندما كنت في عمرها، كان أول شيء يفعله أبي عند عودته من الخارج هو أن يضع يده على ظهر جهاز التلفزيون يتحسس سخونته ليعرف إذا كان «فيه حد شغله وهوَّ مش موجود من غير استئذان»، لكنني كنت أسبقه وأضع المروحة في ظهر الجهاز عند تشغيله «سرقة»، كانت الرقابة على قدم وساق، وأتذكر أنني كنت أمام فيلم سبعينياتي وكانت هناك قُبلة في الطريق بين البطل والبطلة، وفوجئت بخالي يقول لي: «إنت عارف عبد الحليم حافظ قال إيه قبل ما يموت؟»، فالتفت ناحيته وانشغلت بالسؤال الوهمي وضاعت القُبلة، وكانت خطة ذكية لشغلي عن انحراف لا يليق بسني الصغيرة، وقتها كانت الأم تسخر من كثرة تنقلي بين القناة الأولى والثانية، ليس لأن هذا سيفسد عقلي ويكشف عن كوني ـ حسب تعبيرها ـ «ما باعرفش أتفرج»، لكن لأنه سيفسد مفتاح تقليب القنوات. والآن أنا أمام طفلتي التي فتحت التلفزيون بدون استئذان، وأمسكت الريموت، وتنقَّلت بين عشرات القنوات، واستقرت عند فيلم، واختارت أن تشاهده كاملًا، وعرفت اسمه، وفهمته، وأعجبها، وكل هذا «من ورا ضهري»! أخذتني العزة بالإثم، واستعدت هيئتي القديمة كأب غِلس، واتجهت إلى طفلتي وأنا أسألها بجدية تامة: «وشوفتِ أفلام إيه تاني بقى إن شاء الله؟»، فنظرت لي باندهاش حقيقي قائلة: «إيه السؤال ده؟ !».

المَرِح

ظهر في شارعنا كلب حديث الولادة، كنت أتابعه طول الوقت وهو يحاول أن يتعلم النباح مثل بقية بني جنسه، فيخرج صوته مبحوحًا متقطعًا بشكل يثير ضحك كل من يتخذ من شارعنا مستقرًّا له (السايس، البواب، صاحب الكشك، عامل المقهى). كان يختفي قليلًا ثم يظهر فجأة بـ«هليلة» في الشارع، «هليلة» مرحة جعلت الجميع يقعون في غرامه ويسألون عنه كلما اختفى .

كان أهم ما يميزه هو حبه للحياة، يسير إلى جوار البنات صامتًا رافعًا رأسه الصغير باتجاههن، أراقبهن وهن يتحاشينه ويسرعن الخطى ثم سرعان ما يسبقهن الجرو بخطوة ثم «يتشقلب» أمامهن على أسفلت الشارع فيثير ضحكهن وتعاطفهن، فيسمحن له بأن يكون في الصحبة حتى نهاية الشارع. يعرف حدود الشارع جيدًا، فلم يحدث أن عبرها. يستقبل المارين الغرباء بنباحه الكوميدي وشقلبته ومرحه حتى يغادروا الحدود بسلام مؤتنسين بالتشريفة التي يقدمها لهم .

حاول أهل الشارع كثيرًا أن يطعموه، وضعوا له بواقي الدجاج وكسر الخبز، لكنه لم يكن يقترب أبدًا منها، إلى أن رأيته يومًا يخرج من تحت إحدى السيارات حاملًا في فمه بقايا ثمرة «خس»، أخذ ينظفها بلسانه ثم شرع في التهامها، وما إن أنهاها حتى نام على جنبه الأيمن في الظل سعيدًا .

يغيب لساعات طويلة، ثم يتصادف أن تمر «فسبا» يشغل صاحبها عبر الفلاشة بصوت عالٍ إحدى الأغنيات الشعبية الصاخبة، فيظهر الكلب الصغير من مكان ما ويظل يجري خلف «الفسبا» بطريقة لا تشبه الكلاب، ولكنها أقرب لقفز الكنغر الراقص. قال لي عامل المقهى إنه «كلب دماغ»، وإنه قبل يومين وأثناء تنظيف المقهى فجرًا عقب انصراف الرواد تسلل إلى أحد الأركان مستكينًا هائمًا في الملكوت بينما عملية التنظيف تتم برعاية صوت أم كلثوم القادم من الراديو، سألته عن اسم الأغنية، فقال العامل: «أنا فاكر؟ اسأله ».

كلب صغير، محب للحياة، أصبح نجم الشارع، اعتبرناه هاربًا من أهله، وكنا نتساءل عن سر اختياره لهذا الشارع الذي تندر فيه الكلاب، إلى أن اختفى تمامًا .

سألت السايس، فقال إن مجموعة من الكلاب دخلت الشارع فجر أحد الأيام وخرج معها ولم يعد .

ظننت أن السايس يمنحني نهاية منطقية ليريحني، لكنني تذكرت أنني قبل أيام صحوت فجرًا على أصوات نباح عالية في الشارع يتخللها نباح الجرو الصغير المميز، قلت لنفسي إن السايس صادق، وإن هذا النباح لا بد أنه كان نقاشًا عائليًّا انتهى باصطحاب الابن إلى ملاعب العائلة، وإنه تحت ضغط ما اضطر للرحيل عن العالم الذي اختار أن يعيش فيه بنفسه وبقوانينه الخاصة جدًّا في الطعام والانطلاق وحب البشر والموسيقى .

مر وقت طويل افتقدته خلاله، إلى أن ظهر من جديد، رأيته يخرج من أسفل السيارة ويجري باتجاهي بشوشًا كعادته، لكنه كان يعرج ويرفع بصعوبة عن الأرض ساقه الخلفية المكسورة، فهمت أن عودته للحياة التي يحبها لم تكن سهلة أبدًا .

اتفضل قهوة

أحاول أن أكتب، لكن هناك «تهنيجة» ما، أحاول أن أفكها، فضاعفت كمية البُن التي يجب أن أضعها في الكنكة لفنجان الصباح .

في انتظار «الفوران»، فوران البُن وفوران أي فكرة يمكن أن أفتح كلامًا فيها، قلَّبت في الراديو، أحب البيوت التي تضع راديو في المطبخ، فهذا يساعد على أن تخرج منها الأشياء معجونة بالونس والمزاج، حتى لو كان «طاجن فول إسكندراني ».

على أضعف درجة في النار تسمح للقهوة أن تنضج كما يجب، كنت أقف أراقب الموقف، في محطة مجهولة كان عمر خيرت يلعب توزيعًا جديدًا لـ«لأ مش أنا اللي أبكي»، يسهل تمييز مزيكا خيرت بعد سنوات وضعها كثيرون في كل مكان، من إعلانات التلفزيون إلى الأسانسيرات، مرورًا بمداخل الفنادق وموسيقى الانتظار عند الاتصال بخدمة العملاء، تغلغلت وجهة نظره في الموسيقى بداخلنا وصارت «حتة مننا ».

لكنني توقفت عند وجهة نظر الشاعر حسين السيد، بخصوص «إنه مش هو اللي يبكي»، كان يعتقد أنه امتياز، لكنها لعنة .

في الطفولة كانوا يحذروننا بخشونة: «ما تبكيش زي البنات»، فعلموا الواحد أن يحرم نفسه من حق طبيعي، تصريفة منحها لك الله رحمة بك، ولكن ـ بقلة خبرة ـ شمَّع الواحد مسامها عملًا بتوجيه الأهالي. رأيت أبي طول حياتي يبكي مرَّتين، لم أره ولكن للدقة ضبطته يفعلها في صمت مختليًا بنفسه عقب وفاة شقيقه وابن عمه. ومن كثرة ما تمرن الواحد على ضبط نفسه صار يتماسك في المواقف الثقيلة الصعبة، ثم ينهار تمامًا في موقف تافه، لكنها تفاهة القشة المدببة التي تثقب «بالونة» كان يخبئ الواحد فيها دموعه منذ فترة .

أفكر أن أكتب عن أشياء كثيرة. أفكر أن أكتب عن التعليم الذي لا يتوقف، بداية من سن السابعة يسمع الواحد أهله وهم يقولون له بكل حماس صادق: «إنت خلاص دلوقتِ بقيت كبير»، بما يعني ضمنيًّا أنك تعلمت وأصبحت تفهم كل شيء وتجاوزت جهل الطفولة .

لكن بالوقت يتمنى لو كان سقف هذه الجملة هو سن السابعة، فالتعلم لم يتوقف يومًا واحدًا .

المدرسة مستمرة، أحاول أن أتعلم من نجيب محفوظ أن الكتابة تعالج كل شيء ولو كان طعنة في الرقبة بالسكين. أن أتعلم من سعد زغلول أنه حتى لو استقر بداخل الواحد يقين «مفيش فايدة»، فإن هذا لا يمنع الاستمرار في المحاولة حتى آخر العمر. أن أتعلم من الشيخ مصطفى إسماعيل أن أكون خفيفًا بلا «نفس»، كان الشيخ مصطفى قد أصبح مقرئًا ذائع الصيت صاحب أجر عالٍ، ثم فوجئ بالشيخ محمد رفعت يستدعيه ويطلب منه أن يراجع قراءته على يد أحد المشايخ الكبار لأنه يشعر بخلل ما فيما يقدمه، لم يُثقل نجاح الشيخ مصطفى روحه، توقف عن النجاح وعاد ليتعلم حتى رضي عن أدائه الكبار .

أن أتعلم من شادية القدرة على التخلص من أذرع أخطبوط الحياة والشهرة وامتلاك القوة التي تجعل الواحد يقول بثبات لكل هذه الإغراءات: «شكرًا سلامو عليكم». أن أتعلم من سيد درويش قدرته على التقاط الفن، عندما كانت الدعارة رسمية في مصر كانت المشتغلات بها يذهبن كل فترة لتوقيع الكشف الطبي وهن غارقات في الخوف من أن يفشلن فيه وتضيع منهن رخصة أكل العيش الوحيد الذي يعرفونه، وعندما يجتزن الاختبار بنجاح يخرجن فرحات يغنين فوق العربة الكارو

«سالمة يا سلامة.. رُحنا وجينا بالسلامة»، التقط سيد درويش من هذا البؤس الإنساني وبتسامح نادر ما جعله يصنع أغنية خالدة تحمل الاسم نفسه .

كان الهواء يهز سلك شباك المطبخ بدرجة مزعجة، تذكرت الصنايعي الذي أنجز المهمة بـ«ضهر إيده»، أحاول أن أخمن سر قلة الإتقان الشائعة، تذكرت عام 1517 عندما قرر السلطان «سليم الأول» نقل العمال المهرة في مختلف التخصصات إلى إسطنبول عاصمة الدولة العثمانية، واختار كل «الشطار» الذين كانت مصر تبرق بـ«شغل إيديهم»، كان قرارًا قاسيًا بعقوبات مؤلمة لم يقوَ أحد على الفرار منه، كان سليم الأول قد جعل لكل حرفي ضامنًا مسؤولًا عنه، وتتم معاقبة الضامن إذا «خلع» الحرفي، فتورط الشعب في تسليم بعضه البعض لمركز التجمع في ميناء الإسكندرية. كان عدد العمال وقتها 1800، تم تحميلهم على مركبين، وكانت ذروة القصة أن غرقت مركب تحمل معظمهم ومات كل من عليها، وبعد عام وصلت إلى القاهرة أخبار المركب الأخرى عبر خطابات حملها شخص عثماني إلى القاهرة، وكانت هذه الخطابات تنقل اللوعة والأسى وأخبار من ماتوا هناك .

أعتقد أنه بعد كل ما حدث لجأ الصنايعية المصريون إلى تخبئة مهارتهم، خوفًا من أن تقتلهم كما قتلت من سبقوهم. اضطر الصنايعي المصري إلى وضع لمسة على عمله تقول إنه لا يستحق شرف السفر إلى إسطنبول، وكانت رداءة التقفيل سببًا كافيًا لاتقاء شر «سليم الأول»، حيلة دفاعية قد تكون أفسدت المهنة لكنها أنقذت حياة كثيرين .

تفصيلة وضع لمسة تنفي المهارة، تحولت بالوقت إلى تفصيلة في «جينات» الصنايعي، لم تعد اختيارًا، أصبحت خاضعة لقوانين التطور والوراثة، عندك مثلًا الزرافة، عندما جفت الحشائش في الأرض لم يكن هناك مصدر للطعام سوى ورق الأشجار، وبالوقت طالت رقبة الزرافة حتى تطول هذا الطعام، ثم انتهى الجفاف وعادت الحشائش ولكن رقبة الزرافة لم تعد كما كانت، كذلك اختفى «سليم الأول» لكن مهارة العمال لم تعد كما كانت .

أحد المستشرقين أعد كتابًا عن «الطوائف والحرف المصرية في القرن 18»، اندهش من ضعف المهارة في المهن الصريحة مثل «النجارة»، مقارنة بمهارة هائلة في مهن «متدارية» مثل «الأرابيسك»، وعندنا حاليًّا قد يبدي الصنايعي دهشته إذا ما خرجت صنعته بدون خطأ واحد، وقد يصارحك كزبون إن «قرفتك حلوة»، وأنه لم يكن يقصد هذه الجودة، ويجتهد في البحث عن تفسيرات من نوعية «إنت ابن حلال»، ويؤكد أحيانًا أنه «والله ما أعرف أعملها تاني ».

أفكر أنه يجب على الواحد إذا وجد صنايعيًّا مهارته تقترب من الـ70% فأنت أمام أحد هؤلاء المهرة الذين ابتلعهم البحر، وكل ما يحتاجه لتعويض الـ30% الناقصة هو الشعور بالأمان. يرى الحرفي في كل زبون «سليم أول»، ولا أحد فينا يدخر جهدًا ليظهر كمستبد، فيلجأ الحرفي دفاعًا عن نفسه إلى «العك» وضرب المواعيد و«الطلسقة»، ليس في الأمر إهانة لك كزبون، لكنها حيل دفاعية نفسية موجودة بداخله تخضع لقوانين الوراثة . لا بد أن يتمرن الواحد على طولة البال، والتفهم، وتقدير هذا الخوف، ومنح الحرفي صلاحيات «المعلمة»، واستبدال «شغل وحش زي وشك» بـ«تسلم إيدك بس فيه أحسن بكتير ».

رقبة الزرافة العالية تنحني بمرونة عالية لمن يقدم لها «جزرة» وعلى وجهه ابتسامة .

الابتسام أصلًا يليق بنا كمصريين، كان نابليون في عز احتلاله لمصر ونضالنا ضده يرى في الشارع كلما خرج مواكب العرسان، فقال: «عجبت لهذا البلد الذي لا يعرف الحزن أبدًا»، وقد

كان محقًّا، لا شيء يعطلنا، والاستمتاع بالحياة ليس حكرًا على الأغنياء، ونلتمسه ولو في حدود سنتيمتر مربع، وقد يكون قوامه طلب المزيد من الطحينة على طبق الفول على عربية «حمادة قطة ».
صحيح أن كثيرين لا يعرفون البنوك، لكننا ندخر ونستثمر فيما هو أكثر دفئًا من البنوك، «الجمعية» و«النقطة» و«الندر». لدينا مهنة غير موجودة في أي دولة اسمها «أرزقي»، وهو شخص يخرج من بيته لا يعرف «هيعمل إيه بالضبط»، لكنه يعود معظم الوقت مجبور الخاطر .
لا تخلو قلوبنا من طمع، ولكن الطمع في «البركة» لا في الرزق، عندنا الغيرة من «اللي ربنا مبارك له» أكتر من «اللي الفلوس معاه زي الرز». أول جنيه في أول النهار الذي نُقبّله ونضعه فوق رؤوسنا، له حلاوة أهداف شيكابالا، وسلطنة وردة، والشعر الأبيض في سوالف عبد الناصر. عندنا يلمس «الشقيانين» القلب أسرع من «المرتاحين»، أو كما قال: «اللي تعب وشقي أحسن من اللي صحي لقى»، الكفاح له جاذبية، وكاريزما الشقيان تفوق كاريزما نجوم السيما. عروق الكفين النافرة، وظهر القميص الغارق في العرق، والتغفيلة على شباك الميكروباص في نهاية اليوم، وطرطشة البوية على الجينز القديم، وآثار المونة على كف تمتد لتلتقط قرطاس الطعمية من البائع، هذه هي ثروتنا .
نتعثر أحيانًا، وتلسعنا «الزنقة» لسعة قناديل البحر، ويُضطر الواحد لغربلة طموحاته ليُسقط منها غير المُلح، لكن عود بخور يتم إشعاله في البيت يوم الجمعة عقب «فطورة جامدة»، يجعل الواحد متصالحًا مع الوضع .
ثروتنا أننا نعيش طول الوقت على موعد مع «يا فرج الله»، والوفاء بالموعد لا يحدث كمكافأة على كوننا شعبًا «متدينًا بطبعه» كما يُشاع، لكن لأن الأصل في الحياة عندنا هو أن «الناس بتشيل بعض»، فطبيعي أن يكون كرمك مع «خلق الله» مردودًا عليه، أو كما قال أحدهم: «مش هتبقى أكرم من ربنا يعني ».
أفكر لو اختفت النقود وعدنا إلى المقايضة، قيمة الأوراق النقدية تتآكل، هناك محلات في مصر اتخذت قرارًا بإلغاء بعض العملات، مثل محل المأكولات في سوق التوفيقية الذي وضع لافتة: «لا يوجد فول بجنيه»، أصلًا عاد الجنيه الورقي لأن المعدني يحتوي على معدن قيمته أكثر من جنيه، ومحصل الكهرباء صار يغادر بعض البيوت بـ«رزمة متأستكة » بحزام البنك الورقي، ورقم مثل 40 ألفًا تدهور به الحال فانتقل من معارض السيارات إلى معارض اللاب توب، وقريبًا سنستخدم الأوراق النقدية لتدفئة الصدر وعمل عرائس نحرقها في البخور منعًا للحسد، الأوراق النقدية في مصر تقترب من مصير «الطوابع»، وستصبح مادة للذكريات والنوستالجيا، وسيصبح جمعها هواية البائسين عاطفيًّا، الجنيه الذي اشتُق اسمه من كلمة «الجن» لصعوبة الإمساك به، أصبح مثل بائع بالونات ملونة في المقابر. هناك خلل في معيار التقييم أصابنا بـ«دوخة الحوامل»، كنا قديمًا نؤمن أن اللي معاه قرش يسوى قرش، الآن اللي معاه 100 ألف جنيه يساوي 12800. أنا لا أشكو، فالحياة مرهقة في كل الأحوال، وكما نعرف جميعًا «لا العاشق مرتاح ولا الخالي مرتاح»، وبقت حاجة تقرف .
نحن نمتلك ثروة كبيرة ستجعل الحياة أسهل في ظل المقايضة، في كل بيت صندرة، وسطوح مليء بالكراكيب، وكنبة أسيوطي مجوفة، و«نيش»، لا نستخدم محتوياتها، في كل بيت ثروة من الجراكن، وأكياس المشتريات البلاستيك، وبرطمانات الصلصة التي أصبحت برطمانات بُن،

وعلب شوكولاتة أصبحت علب أدوات الخياطة، ولعب أطفال كبروا خلاص (أو حتى لو ما كبروش، أهي فرصة).

سنعود للحياة الجميلة، سنربي الدواجن في الحمَّام، وسنصنع من عظامها إكسسوارات لشعر البنات، سنزرع الجرجير والطماطم في البلكونات، وسنربط الماعز على باب البيت، ونخض ألبانها في قربة لصنع الجبن والقشطة، وسنصنع من جلدها عباءة تدفئنا، وسنظل نتوغل في تلك الحياة ونرجع في الزمن حتى تظهر الديناصورات من جديد وتأكلنا، علشان الحكومة ترتاح خالص .

وقفتي في مملكة المطبخ جعلتني أفكر أن أكتب عن صاحبة المملكة. سألني أحد الصحفيين في نهاية العام عن ترشيحي لشخصية العام، قلت له: «أرشح زوجتي للقب»، هي التي تتلقى صفعات الغلاء بنفسها يوميًّا بالنيابة عن كل من في البيت، أستطيع أن أميز هيئتها وهي عائدة من السوبر ماركت، أكثر من تمييزي لها وهي عائدة من الكوافير، هي التي تبنَّت خطة البيت للدفاع عن عداد الكهرباء خوفًا من رفعه بعد الفواتير العالية، تقبَّلت خطة أن يعمل السخان الكهربائي بمواعيد و«كل واحد وحظه»، وأن نور البلكونة لا معنى له، وضرورة أن يظل الصالون مظلمًا طالما لا يوجد ضيوف (أو حتى لو فيه)، تُقدِّم فقرة الساحر يوميًّا على مسرح مصروف البيت، وتطارد طول اليوم أشخاصًا قصار القامة يعيشون معنا، محملةً مرَّة بالطعام ومرَّة بالبامبرز ومرَّة بالدواء، ثم أتابعها في السادسة صباحًا من تحت البطانية وهي تسحبهم لتسلمهم لأتوبيس المدرسة. «شقا»، أنظر إلى علاقتي به فأجد «كبيري» هو «الزغزغة» مع الأطفال لمدة عشر دقائق، يليها أوامر جافة لهم أن «يحلوا عن سمايا خالص ».

وليتني أكافئها في نهاية اليوم بعد نوم الأطفال بكوبين من الشاي بالنعناع والطبطبة، لكن الشاي دائمًا في صحبة المواضيع التي أختارها، نسهر الليل نتحدث عن شفيق والأجهزة السيادية ومصير أبو هشيمة والدَّين الخارجي، وخطابات الرئيس. لم تعترض يومًا، وتتفانى في أن تؤنسني بالحوار في المواضيع التي حددتها. يُحسب لها أصلًا قدرتها على مواصلة العيش في رفقة واحد أكل عيشه قائم على التحليق والتفكير والصمت والانعزال وتجربة الأفكار الجديدة في كل من حوله، في أي وقت يخطر على باله، رفقة واحد هوايته التهور، ويتفنن في إيجاد أفكار يقطع بها عيشه من مكان ملَّ العمل معه، رفقة واحد «فقري» يحب محيي، ويشجع الزمالك وسعيد به، ويتمنى طول الوقت لو عاد الزمن به ما خرج من مدينته في جنوب الصعيد، يدخن «الميريت» لكنه يحتفظ أحيانًا في الدولاب بعلبة كليوباترا بوكس يدخن منها في الحوارات الليلية، رفقة واحد لا يشبه الآباء الذين يخططون لمستقبل عائلاتهم بالاستثمار في شقة أو سيارة جديدة بالتقسيط، لكنه يرى أن الاستثمار أفضل في السفر والتعليم والخروج بالأطفال، واصطياد تفاصيل وقتية مبهجة في المكتبات وقاعات السينما والفكهانية وعشوة عند البرنس. أشعر أحيانًا أنها تعيش في خطر، لكن هذا لا يثنيها عن تحمل نصيبيها وبعض من نصيبي في المسؤولية .

صحيح أن الواحد بحكم الفترة الطويلة التي قضاها وحيدًا، يفكر أن الحياة ستكون أسهل وأكثر خفة لو أنه استعاد «العزوبية»، يطل هذا الشعور يوميًّا في عقل الرجل من مرتين إلى 18 مرَّة تقريبًا، لكن عندما يدقق الواحد في استعادة العزوبية الآن يراها أشبه باستعادة البدلة من الدراي كلين «ناقصة الجاكيت ».

كنت أراقب القهوة، وجاء في بالي أن الواحد مهما اجتهد في شراء أجود أنواع البُن وزيارة أشهر المقاهي، فلن يشرب فنجان القهوة الذي يحلم به إلا عن طريق الصدفة، فيما عدا ذلك تبدو كل فناجين القهوة التي ستشربها طوال حياتك مجرد محاولات لخلق هذه الصدفة من جديد .

تذكرت موبايلي الذي أغلقته قبل أن أنام، فتحته فوصلتني رسالة مني، أرسل لنفسي ما يجول في بالي من أفكار طوال اليوم، علَّني أجد فيها لاحقًا ما يستحق الكتابة، كانت الرسالة تقول: «أحسن مكان الواحد يحوش فيه ويعمل رصيد هو الأب والأم.. الرصيد اللي أولادك هيصرفوا منه عليك بعد كده ».

حركت الشاشة إلى أعلى متأملًا الرسائل التي وصلتني مني خلال الفترة الماضية، كنت أحاول أن أتذكر متى ولماذا كتبت هذا الكلام؟

«يتعلم الأطفال العوم أسرع من الكبار، لأنهم لا يتوقفون عند الخوف من الغرق ».

«المحظوظ في الحب هو الذي يعثر على الشخص الذي لم يكن يبحث عنه أبدًا ».

«أول ما يجب على الواحد دراسته قبل اتخاذ أي قرار هو دراسة «إمكانية الخلعان مستقبلًا »».

«يرتبك الكاتب من مسألة توارد الخواطر، يفرحه أنه يفكر مثل الناس، وهذا تحديدًا هو ما يخيفه أيضًا ».

«كان المتحدث اللبق بضاعة نادرة ومميزة يحتفي بها الجميع لأنهم يريدون أن يسمعوا، الآن يريد الجميع أن يتكلم، لذلك صارت العملة النادرة هي المستمع اللبق ».

«يطالع الواحد «حظك اليوم» لأنه يداعب الشخص الكسول بداخلنا: أموال في الطريق إليك، مفاجأة سارة قريبًا، أخبار طيبة نهاية الأسبوع. كل ما هو جميل سيحدث لك دون أن ترهق نفسك.. هذا ما يجعل الواحد يقرأ برجه وهو يطبطب على كرشه ».

«إذا تأملت وجهي الآن فستجد به خمس تجاعيد، واحدة من الزمن وأربعة من مصر ».

«الحب خطأ تقني قديم، يعتقد الواحد أنه يحب إنسانًا ما، والحقيقة أنه يحب نفسه من خلال هذا الإنسان. كلنا نعشق المرايا الصافية لأنها تُقدِّمنا لأنفسنا في الصورة التي ترضينا، المرآة لا تلمس قلوبنا لكن صورتنا هي التي تمنحنا فرحًا ما. تدعي أنك تحب شخصًا وتتوهم أنك أسير عينيه، والحقيقة أنك أسير صورة نفسك في هاتين العينين. يخترع الواحد منا شخصًا يحبه بالروح نفسها التي اختُرعت بها الكهرباء، لا أحد يعشق الكهرباء، لكننا لا نستطيع أن نستغني عن كل ما يترتب عليها ».

«وقال له شيخه: أنت في احتياج للبهائم أكثر من احتياج البهائم إليك ».

«لا يوجد ما هو أرق من الاعتراف بالحب إلا الاعتراف بالخطأ ».

«صار العمق أمرًا مبتذلًا من فرط ادعائه طول الوقت. الشخص الذي يصطنع العمق هو أكثر كائن يخشى أن يظهر للجميع سطحيته، أما من يبحث عن البساطة فهو شخص يكافح للهرب، ومن ظلمات عميقة في روحه يخشى أن يورط فيها أحدًا. البساطة هي أكثر الأشياء عمقًا في العالم، البساطة مجرد «شبرين ميه» لكن «تتعب فيهم سفاين.. وتتوه الطيارات»، على رأي أغنية الثمانينيات الحزينة ».

«هناك نماذج في مهنة الفن عقابها الوحيد أن تحصل على الفرصة كاملة ».

«يوضع سره في أضعف خلقه. الضعيف مؤتمن على السر لأنه مستتر، ضعفه يحجبه عن عيون الناس. القوي مفضوح، ولا مفاجأة في حصوله على امتياز السر. نعرف قيمة السر عندما يبرز

من أرض غير متوقعة كأرض الضعيف.. فهو هنا سر ومعجزة في آنٍ ».
كانت مزيكا خيرت قد انتهت، ودخل المذيع يعلن أنها السابعة صباحًا، وأنه موعد اللقاء مع أم كلثوم. أحب الست، وأؤمن أنه كان من السهل الإجابة عن سؤالها: «أهرب من قلبي أروح على فين؟»، لولا أنها وضعت شرطًا صعبًا عند البحث عن إجابة: «لياليـنا الحلوة في كل مكان ».
بدأ وش القهوة يتحرك قليلًا ولم تدخل الست بـ«دارت الأيام»، ولكنها دخلت تصبَّح بـ«يا صباح الخير يا اللي معانا». اقتنص بيرم التونسي مفتاح بدايات اليوم كما نفضلها نحن في هذا البلد: «يا هناه اللي يفوق من نومه.. قاصد ربه وناسي همومه». نحن المصريين خلطة الهموم والعشم في الله، أفكر أن أكتب عن هذا العشم، لكنه سر لا يمكن فضحه، مثلما نؤمن هنا بالبركة نؤمن أن هناك حاجات الكلام فيها «بيقل البركة ».
صببت القهوة وقربتها من أنفي في محاولة للإمساك بأول خيوط اليقظة والبهجة في هذا النهار، في الخلفية كان محمد فوزي قد بدأ يطلب أن «طير بينا يا قلبي»، قررت أن أطير معهم، لأنني لم أجد في حوزتي شيئًا مهمًّا يمكن أن أكتبه، ربما في المرَّة القادمة .

المصادر

1- كتب

حسين العشي . خفايا حصار السويس . القاهرة: دار الحرية، 1990 .

سعيد هارون . أخبار المصريين في القرن العشرين . القاهرة: مكتبة الآداب، 2008 .

2- مقالات وتحقيقات صحفية

سحر عربي. «جيش «نوال السعيد»، ذكريات وبطولات جنود الإمداد والتموين»، جريدة المصري اليوم .

منى مدكور. «صاحب أشهر صورة عن حرب أكتوبر: أعظم كلمة سمعتها «اعبُر»»، جريدة الوطن .

آية حسني. «ملحمة «كبريت» صمود 114 يومًا بلا طعام أو ماء»، موقع البوابة .

محمد عبد الله. «أسرار وفاة عماد عبد الحليم»، مجلة الشباب .

ياسر علوي. «العبقري المنسي فؤاد عبد المجيد » ، جريدة الشروق .

3- برامج إذاعية

هؤلاء والقمر. تقديم سامية صادق . البرنامج العام .

منتهى الصراحة. تقديم وجدي الحكيم. البرنامج العام .

عن الكاتب

مواليد صعيد مصر في منتصف السبعينيات. صدر له عدة كتب من بينها: «صنايعية مصر.. مشاهد من حياة بعض بناة مصر في العصر الحديث»، «أثر النبي ـ قصص قصيرة من وحي السيرة»، «إذاعة الأغاني ـ سيرة شخصية للغناء»، «شركة النشا والجلوكوز ـ نص مفتوح»، «بالقرب من نهر بيدرا جلست وبكيت ـ ترجمة لرواية باولو كويلو»، «شكلها باظت ـ ألبوم اجتماعي ساخر»، «زملكاوي ـ ألبوم مئوية الجماهير»، «جر ناعم ـ ألبوم القصص والشعر»، «ابن عبد الحميد الترزي ـ ألبوم سينمائي ساخر»، «رصف مصر ـ ألبوم ساخر مصور»، «الكلاب لا تأكل الشيكولاتة ـ حواديت برما ».

كتب للسينما عدة أفلام من بينها : «طير إنت»، «يوم مالوش لازمة»، «كابتن مصر ».

أصدر عدة دواوين شعرية من بينها: «وضع مُحرج»، «قهوة وشيكولاتة»، «مشوار لحد الحيطة»، «عرفوه بالحزن ».

كتب أغنيات لكثيرين من بينهم: أصالة، رامي صبري، أحمد عدوية، كايروكي، سعاد ماسي، أحمد سعد، محمد عساف، عزيز الشافعي، مصطفى قمر، محمد رحيم، فيروز كراوية .

قدَّم عدة برامج إذاعية من بينها: «واحد صاحبي»، «الطريق إلى عابدين » ، «شفت ربنا؟ ».

قدَّم عدة برامج تلفزيونية منها: «كلام جرايد ـ 2005» ، «مصري أصلي ـ 2010»، «اتجنن مع كوكاكولا ـ 2013 ».

كتب وقدَّم الحلقات الوثائقية «وصفوا لي الصبر ـ عن الكتابة وأهلها» على قناة «ten» 2018.

كتب عدة مسرحيات من بينها: «يا طالع القلعة»، «شغل عفاريت ».

كتب للتلفزيون مسلسل الكارتون «سوبر هنيدي ».

البريد الإلكتروني : omertaher@yahoo.com